إتين دى لابويسيه

مقال فى
العبودية المختارة

ترجمة وتقديم

الدكتور مصطفى صفوان




مقـــال
فى العبودية المختارة

تأليف : إتين دى لابويسيه

ترجمة : مصطفى صفوان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

اهــــداء

الى انجى أفلاطون وفؤاد مرسى

عاشا يجمعهما حب مصر

وماتا كما نموت جميعا : فرادى

المترجم

مقدمة المترجم

١ ـ القرن السادس عشر ومقدماته .

٢ ـ حياة المؤلف لابويسيه وأعماله .

٣ ـ المقال فى العبودية المختارة ، طبعاته والآراء فى صدده .

٤ ـ اشارات فى قراءة المقال فى العبودية المختارة .

٥ ـ قمت بترجمته ؟

١ ـ القرن السادس عشر ومقدماته

كان القرن السادس عشر ، وهو القرن الذى ولد فيه اتين دى لابويسيه ، القرن الذى طفرت فيه أوروبا فصارت الى ما هى عليه من الغلبة والرخاء • ولم تكن هذه الطفرة نقلة من العدم الى الوجود أو من « ظلمة العصر الوسيط » الى النور وانما مهدت لها الحقبة الأخيرة من هذا العصر بين القرنين العاشر والثالث عشر : استغلال أمهــر للطاقات المتولدة عن جريان الأنهار وحركات المد والجزر وهبــوب الريــاح ، تجلت آثاره فى مجالات متعددة كطحن الغلال وغربلة الدقيق وتكبيس الأقمشة ودبغ الجلود ؛ تقدم فى استخراج الفضة والقصدير والحديد الذى تيسر بفضله صنع المحاريث القادرة على تقليب التربة الأوروبية الرطبة الثقيلة تقليبا عميقا فضلا عن استخدامه فى التسلح ؛ تقدم فى قطع الأحجار حتى أن فرنسا استخرجت من جوف تربتها بين القــرنين الحادى والثالث عشر أحجارا تزيد عما استخرجته مصر القديمة فى أى عهد من عهودها وان يكن الهرم الأكبر وحده قد ضم ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ متر مكعب من الأحجار ؛ تحــكم فى الجبال بحفر الأنفــاق وفى مجــرى الأنهار بحفر القنوات وبناء السدود والخزانات مما أدى الى ربط المراكز التجارية الكبرى بين البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال والى رواج المعارض والأسواق التجارية ؛ اســتخدام المطــارق الآلية واستخدام المضخات الهوائية فى رفع درجة الحرارة فى الأفران حتى أن لندن قد سبقت الى الشكوى من فساد الجو بين عامى ١٢٨٥ ــ ١٢٨٨ ؛ زيادة فى المحاصيل الزراعية وبخاصة القمح بفضل توسيع مســاحة الرقعة المزروعة وتغيير مناهج الزراعة وتحسين وسائلها ومعداتها حتى صارت

فنا تجريبيا توضع فيه المؤلفات وصارت الأراضى التابعة لبعض الأديرة بمثابة مزارع نموذجية ؛ زيادةفي الثروة الحيوانية بفضل تحسين النسل بين المواشى والأغنام ؛ تجديد فى فنون الملاحة بتحسين البوصلة التى أمكن بفضلها شق البحار بدل التزام السواحل وبوضع الخرائط المضبوطة وتبسيط جداول حساب المثلثات وبناء طرز جديدة من السفن أكبر حمولة أو أسرع وابتكار دفات يتسنى بها توجيهها توجيها أدق ، الى غير ذلك من التجديدات التى جعلت الالتفاف حول القارة الأفريقية فى الطريق الى الهند وجعلت اكتشاف العالم الجديد يدخلان فى حيز الأمكان . يتوج هذا كله تلك الآلة التى هى نموذج الآلات جميعا في دقتها والتي تنتج هذا الشيء العجيب الذى لا يتسنى بدونه قياس الطاقة ولا فرض معايير للانتاج يقاس بها الأجر ، ألا وهو الزمن المضبوط : ان اختراع الساعة لم يغير فقط من العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الطبقات المختلفة وأعضاء الطبقة الواحدة ، مثال ذلك أن عمال البناء قد صاروا أكثر حرية وأقدر علي التهديد بالاضراب من غيرهم لتعذر محاسبتهم بعدد القطع المنتجة في الساعة ، بل أن المجتمع كله قد انتقل من زمن لم يكن ينفصل عن العبادة ولم يكن الناس يتعرفون مواقيته من شروق يعلنه صياح الديكة الى غروب يؤذن بالظلمة الا بقرع النواقيس في أجراس الكنائس كأنما لا ذكر للأونة التى هم فيها الا بذكر الله الى زمن جديد كل الجدة . زمن لا ارتباط له بالصلوات ومنه بدورات الأفلاك ، فجر وصباح وضحى ثم ظهر وعصر وغروب ومساء ، وانما تقسمه الى وحدات متساوية دقات الساعات المشيدة في الميادين العامة بأمر الدولة — سواء كانت هذه الدولة مدينة مثل جنوة عام ١٣٥٣ م أو مملكة مثل فرنسا حيث كانت الساعة المقامة على رصيف السين المعروف حتى اليوم باسم رصيف الساعة تدق بدقاتها المنتظمة منذ عام ١٣٧٠ م . حتى الكنيسة قد انتهى الأمر بها بعد الرفض الأول الى قبول عقارب الساعة على أبراجها ، هذا فى حين ظلت الكنيسة فى الشرق على ابائها . ولكن اذا كانت الكنيسة الغربية

قد قبلت أخيرا اخضاع الزمن للمنافع البورجوازية .وليس لمستلزمات الأبدية فلأن الغرب كان قد ظهر به رجل جديد ، رجل الوقت عنده مال .

فقد كان من أثر ما سبق ذكره عن زيادة الانتاج أن زاد عدد السكان الذين يخرج منهم المستهلكون وتخرج أيضا الأيدى العاملة . أضف الى ذلك أن ظهور الاسلام لم يؤد ـ بخلاف رأى ساد بعض الوقت ـ الى فصل الشرق عن الغرب بل أن مراكزه العمرانية الكبرى كانت بمثابة قوى استهلاكية ضخمة ما كان يتسنى بغيرها بعث الغرب بعد تأخره بعثا تجاريا جديدا . فلا شك فى أن تجار البندقية وتجار المدن الايطالية الأخرى الواقعة على ساحل البحر الأبيض قد كونوا معظم ثرواتهم عن طريق تعاملهم مع العالم اليونانى ـ الاسلامى من بيزنطة الى الاسكندرية ، ولا شك فى أنهم قد استعاروا عقلياتهم ومناهجهم ممن سبقهم من تجار بيزنطة والتجار العرب . هؤلاء التجار الجدد الذين يعود اليهم الفضل فى انتشار المدن وفيما حظيت به من السؤدد حتى صار بعضها دولا والذين أحدثوا ، بعد النقل ، تجديدا ثوريا فى ميادين المحاسبة والصيرفة والتأمين والائتمان والتعاقد بمختلف أنماطه قد بلغت سعة آفاقهم الجغرافية والاقتصادية وبلغ حجم الأموال التى كانوا يتصرفون فيها حدا صح معه وصف ظهورهم بكونه ظهورا لرجال الأعمال (وان لم يصدق وصفهم بالرأسماليين بالمعنى الماركسى) وتألفت منهم طبقة لم تجعل للكنيسة والنبلاء مناصا من أن يحسبوا لها حسابها .

كان موقف الكنيسة يتلخص أولا فى هذه الجملة : « التاجر لا ينال رضا الله أو بصعوبة » . ولكن بعد قرنين من التوسع التجارى وبعد أن ظهرت فى المدن حرف جديدة يخرج بها العمل من دائرة الفلاحة ، أدرجت الكنيسة التاجر فى صفوف سائر العاملين الذين يصدق عليهم الحكم الالهى المنصوص عليه فى سفر التكوين : « تكتسب عيشك بعرق جبينك » . الا أنها ظلت على ابائها للربا

لأنه كما قال القديس توما الأكويني فى القرن الثالث عشر « بيع لما لا وجود له » . وظل وعاظها يتوعدون المرابين والصيارفة شر توعد : « سوف تعدل كمية الأموال التى ينالونها من الربا كمية الأخشاب الموقدة فى الجحيم لحرقهم » . ولكن من يعطى الفقراء اذا لم يكن الأغنياء(١) ؟ ثم أليست أعمال البر مجعولة لفداء الربح ؟ ليعط التجار اذن الاخوة الرهبان ـ وبخاصة الفرنسسكان ـ ما يعينهم على فتح دور الله وتكريس مواهب أعظم فنانى العصر لتجميلها بفلورنسة أو أسيز . ثم أليس الربح عطاء من الله ؟ ثم أليست كل صفقة مجازفة ؟ وأليست كل مجازفة القضاء فيها بيد العناية الالهية ؟ ـ تلك كانت لاهوتية رجال الأعمال التوسكانيين التى عبر عنها القديس برنار أحسن تعبير اذ ذهب الى تبرير الفائدة بما يجلبه توظيف الأموال من النفع : انها تساهم فى حسن نظام المجتمع المسيحى . صحيح أن الانسان لا يعيش بالخبز وحده ولكنه يعيش به أيضا ، خاصة وأن رجال الأعمال لم يغفلوا ارضاء ضمائرهم فأغدقوا على الكنيسة أموالا كانت فى أمس الحاجة اليها فى صراعها مع الأمراء كما أنهم لم يغفلوا شراء أسهمهم فى الجنة بالنص فى وصاياهم على حصص تخصص للقسيسين لما يتولون انشاءه وادارته من مؤسسات المعونة والاحسان .

اذا كان رجال الأعمال قد سهل عليهم ارضاء الكنيسة وربما (فيما يتعلق ببعضهم على الأقل) ارضاء ضمائرهم بحسابات ليوم الحساب فقد تفاوتت علاقاتهم بطبقة النبلاء بين المزاحمة والازاحة والاندماج . انتهت المزاحمة الى الازاحة دون عناء فى مدينة مثل فلورنسا كان الكثيرون من أعضاء أسرها الارستوقراطية قد اشتغلوا

---

(١) تناسى السائلون هذا السؤال الآخر : وكيف هذا الشراء الفاحش الا بابقاء الفقراء على فقرهم ؟ .

بالتجارة لمكاسبها ولتدهور الاقتصاد الريفي ذى النمط الاقطاعى .
أما الاندماج فنراه في مدن مثل جنوه والبندقية زحف اليها نبـــلاء الريف بعد نموها فتكونت منهم ومن أثرياء التجــار أرستوقراطية جديدة حتى قيل فى البندقيــة : « القادة (الدوج) تجار والتجار أمراء البحر» . ثم حتى المدن التى كان لها تجارها يسكنونها منذ البدء (أى كانوا بورجوازيين وكان النبــلاء من ثمة يدرجونهــم فى زمرة « الشعب ») حتى هذه المدن قد حل فيها الوئام بين الطبقة الجديدة وبين الأرستوقراطية القديمة محل الصراعالذى كان يسود علاقاتهما من قبل-صراع كان مداره فى أكثر الأحيان رفض التجار أداء المكوس الباهظة التى كان النبلاء يريدون فرضها عليهم كلما مروا بالطـرق أو الأنهار التى تخترق أراضيهم . وكان السبب الأول فى هذا التغير هو أن رجال الأعمال لم يعودوا يخشون النبلاء بقدر مـا يخشــون الطبقات الشعبية المؤلفة من الصناع وأصحاب الحرف فى المدن الذين صار كفاحهم يهدد استقرار هيمنتهم على التجارة الدولية ويهدد من ثمة قوتهم السياسية . أضف الى ذلك أن التجار لم يعد يصعب عليهم اختراق الحواجز المقامة بين طبقتهم وطبقة النبـــلاء اما بعقــد أواصر المصاهرة أو بشراء أراضيهم أو باصطناع طرائقهم فى الحياة فى بذخ لم يعد يستطيعه غيرهم. هذا عن التجار فى المدن المستقلة التى صاروا هم حكامها الفعليين . أما حيث كان زمام الحكم بيد الملوك والأمـراء (مثل فرنسا وانجلترا ومثل روما نفسها من حيث أصبحت روما مقرا لـما سماه بعض المؤرخين عن حق « الأمير البابوى ») فلم تكن لهم بطبيعة الحال مثل هذه السلطة ، بل هم تعلموا من تجاربهم وتجارب غيرهم (وبخاصة الفلاحين) أن من تمرد بالقوة سحقته القوة . ولكن ذلك لا ينفى ما كان لهم من نفوذ سياسى لا يستهان به . فهم لم يكن للملوك والأمراء بد من استشارتهم فى المسائل المالية والاقتصادية التى نعلم مدى أهميتها فى كل قرار يتعلق بالحرب والسلم . وطبيعى أن التاجر سواء فى الأقاليم أو فى العواصم كانت تهمه المشاركة فى

المجالس لا ليدلي برأيه فقط بل ليتعرف أيضا سياسة الدولة ممثلة فيمن يشترك في هـذه المجـالس من نواب الملك ، ان لم يكن الملك نفسه ٠ كانت هذه المشاركة عنده أهم من الحصول على الوظائف ، ولكن ذلك لم يكن مانعا يمنعه من شراء الوظائف لأبنـائه وأعضـاء أسرته وفي مقدمتها وظائف الملتزمين بتحصيل الضرائب ٠٠ ثم أن مهـارة التجـار التي تتجلى في سعة معلوماتهم واحاطتهم بمجريات السياسة على الصعيد الدولي ، كل هذا قد جعل الملوك يصطنعون منهم مستشارين أو دبلوماسيين أو وزراء للمالية أو مشرفين على بناء أساطيلهم ، الخ ٠ ثم أهم من هذا كله أن الملوك والأمراء لم يروا بدا من الالتجاء الى المصارف طلبا للقروض لتمويل حروبهم التي لا تنتهي ، مما أتاح للمقرضين الحصول على حقوق هائلة اما في شكل ضمانات (كالحصول على نسبة معينة من انتاج المعادن) واما في شـكل امتيازات (كحق استغلال الأراضي المحتلة بفلسطين وسوريا أيـام الحرب الصليبية) فضلا عن التوسع في الحصول على المناصب المدنية والعسكرية على السواء ٠

هؤلاء التجار قد تألفت منهم بالمعنى الصحيح للكلمة طبقة تجلى وعيها في الاتحادات التي انتشرت في مختلف المدن والبلاد حسب مناحي نشاطهم (تجارة اللحوم أو النسيج أو الاستيراد والتصدير ، الخ) دفاعا عن مصالحهم ٠ وقابل هذه الاتحادات من الطرف الآخر للمجتمع اتحادات أخرى سميت أيضا باسم المهن لأنها كانت تضم عمالا يشتغلون بمهنة واحدة ويلتزمون بالقسم على ملاحظة اتباع القواعد المنصوص عليها من حيث شروط العمل وطرق الحصول على المواد الخام وتصريف البضائع المصنوعة منها وجودة الانتاج وعلى أن يحترموا سلطة المحلفين المكلفين بمراقبة احترام هذه الشروط ٠ هذه الاتحادات كانت خلقا من خلق العصور الوسطى لا صلة لها بالمؤسسات المعروفة في قوانين الدولة الرومانية ولا يدري أحد على التحقيق كيف نشأت ٠ وإذا صح قول ماكيافللي ان صراع الطبقات

هو مفتاح تقدم المجتمعات فربما كنا لا نغالى اذا قلنا ان ظهور هذه الاتحادات كان أحد عوامل تقدم الغرب شريطة أن نأخذ فى الاعتبار قيامها فى مدن اما مستقلة واما متمتعة بامتيازات قانونية تعترف بها الدولة ـ وهو الشرط الذى لم يتحقق فى الصين أو الشرق الأوسط مثلا . وأيا كان الأمر فلقد سميت هـذه الاتحادات باسم ترجمته الحرفية هى « المتجسديات » (على وزن « المتصرفيات ») لأنهـا تتألف كالجسد من كثرة من الأعضاء ولكنها كالجسد أيضا تسرى فيها وحدة خفية أو « وهمية » هى التى تجعل منها شخصا قانونيا تملك بمقتضاه حقوقها وواجباتها وخزانتها وأختامها وشاراتها . فلا غرو اذا كانت هذه المؤسسات قد نالت قسطا وافرا من تفكير رجال القانون والمهتمين بفلسفته ، الأمر الذى لم يلبث أن ترددت أصداؤه فى مجال الفلسفة السياسية وفلسفة الدولة بنوع خاص . هذه نقطة تحتاج الى بعض الافاضة حتى يتسنى لنا أن نقيس مدى ما أتى به من الجدة مفكرو عصر النهضة ولا بويسيه بالتحديد .

تقوم النظريات السياسية فى العصر الوسيط على فكرة الكل . فهى ترى فى العالم كلا وترى فى كل موجود سواء وجد بالترابط (الجماعة) أو بالانفراد جزءا وكلا فى آن معا : جزءا تحتمه العلة الغائية للعالم وكلا له علته الغائية الخاصة . ومنه يخرج التصور الوسيط للمجتمع . فالجماعة الانسانية جزء من الكل يستمد وجوده من وجود الله ، وكل مجتمع أرضى عضو فى مدينة الله التى تشمل السماء والأرض جميعا . أما المبدأ الذى يقوم فيه كيان العالم أو دستوره فهو الوحدة ، لأن الله واحد وارادته واحدة ، فكيف يقع انقسام الجماعة الانسانية الى نظامين : الروحى والزمنى ؟ الجميع يتفق على أن هناك وحدة عليا يقع فيها الوفاق ، ولكن كيف يتم ؟ من البين أن الأمر يتعلق هنا بمـا يسمى فى الفلسـفة السياسية بنظرية الأعلوية ، وأعنى بها السلطة التى تعلو كل سلطة أخرى ، فان وقفت سلطة بجذائها انقسم الحكم وهدد انقسـامه بالحرب

الأهلية . ولن نلبث أن نرى أن ما عرف باسم الصراع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية انما كان فى الحقيقة صراعا بين قوتين تعتبر كل منهما نفسها قوة روحية وزمنية فى وقت واحد ، فالسلطة الروحية ترى ألا حكم للدنيا الا بالدين والسلطة الزمنية لا ترى بغير الدين قياما لحكمها . كانت عقيدة الكنيسة هى أنه لو كان من الممكن أن توجد فى هذه الدنيا واحدة تضم الانسانية جمعاء فهذه الدولة لن تكون الا الكنيسة التى أقامها الله نفسه . ولا يعنى ذلك أن الكنيسة تنبذ مبدأ الفصل بين السلطتين بل هى ترى فيه اعرابا عن القانون الالهى . الذى حرم حمل السيف على من حملوا السلطة الروحية نيابة عن المسيح ، فقد أعطى الله السيفين ، سيف الدين وسيف الدنيا ، لبطرس ومن خلاله للبابا كيما يحتفظ بالأول ويسلم الآخر للآخرين . ولكن هذا التسليم ليس تمليكا بل استخداما أشبه باقتطاع الأراضى التى يترك النبيل حيازتها الى محاسيبه من الفرسان ، وما الملك الا المحسوب الأول للبابا ، والقسم الذى يؤديه أمام البابا عند تتويجه هو المثل الأكمل على العهد الذى يهب به الفارس نفسه لخدمة النبيل . فمن حق البابا ، لا بل أن من الحق عليه أن يرفع حيازة الامارة (امبريوم) عن حاملها اذا ثبت عجزه أو فساده وأن يسندها الى الأصلح . أما المخالفون لهذا الرأى فقد صعب عليهم أن يستنتجوا أعلوية السلطة الزمنية من مبدأ الوحدة الالهية ، وان كانت ذكرى العهد الأول الذى كانت الكنيسة تخضع فيه للامبراطور خضوعا يزيد أو ينقص لم تمح بعد من الأذهان . الا أن البعض مثل جيوم الأوكامى ومارسيل البادواوى (من بادوا بايطاليا) لم يحجم عن التشكك فى وجوب تحقق دولة تشمل الانسانية جمعاء ويرأسها رأس واحد ، ولو صح هذا الوجوب لكانت تلك الدولة تبتلع الكنيسة ، فالوحدة الواجبة انما هى فى الترابط . فرجال العصر الوسيط قد انقسموا بين مناصر لأعلوية السلطة الروحية ومعاد ولكنهم جميعا ظلوا تقيدهم فكرة الجماعة الانسانية بما هى كل شبهوه بالجسد الانسانى الذى يتحقق كماله فى الرأس

السماوى . هذه الفكرة وان ظهرت فيها غلبة الخيال المستعار من صورة جسمه على تفكير الانسان أدت مع ذلك الى نتائج مثمرة .

ذلك أن فكرة المجتمع الانسانى بما هو كل لم يتأخر تطبيقها على كل مجتمع جزئى : فكل مجتمع جسد غيبى فى مقابلة الجسد المنظور ، جسد سياسى باق فى مقابلة الجسد الفانى . ومنه تخرج فكرة الجزء بما هو عضو تلزم التضحية به اذا وقع التعارض بين مصالحه ومصالح الجسم بما هو اعراب عن ارادة الكل ، وان كان هذا اللزوم ضررا بالكائن العضوى ينبغي تجنبه بقدر الامكان . ثم من فكرة الكائن العضوى بما هو كل يضم المتشابه (كالعينين والقدمين) والمتباين (كالعين والقدم) ننتقل الى الفروق فى المراتب والأعمال والأحوال والى تصور الأفراد بما هم أعضاء الجسدين الدينى والسياسى لا كوحدات متساوية بل كفئات اجتماعية متمايزة . كذلك يؤدى الاختلاف فى الوظائف وخضوعها لمحرك أول يثير نشاطها ويوجهه (الرأس أو القلب أو الروح ، أيا كان اسمه) الى القول بضرورة الانفراد بالحكم : اما الملك واما البابا . غير أن كتابا آخرين رفضوا هذه المغالطة محتجين أنه مهما تعددت أوجه التشابه بين الجسم الغيبىوالأجسام الطبيعية فانها لا تمحو الفروق بينها . ولكن لما كان الجميع لا يرون للمجتمعات الانسانية أصلا الا الخلق فقد ذهب معظم الكتاب ، وفى طليعتهم مارسيل الباداوى ، الى أن الله وان يكن قد خلق الكنيسة خلقا مباشرا (وهو الأمر الذى لم يكن أحد يفكر فى انكاره) قد ترك مع ذلك للانسان الحرية فى خلق الدولة مسترشدا بنموذج التعضون الذى تزوده به الطبيعة . غير أن هذا الكلام على سلامته (فى حدود التصورات أو المقولات العقلية التى كانت تحكمه والتي لا نزال نرى سيطرتها على بعض العقول حتي اليوم) ما كان ليؤدى الى نتيجة ترتاح اليها الأذهان بعض الشيء ما دامت تعوزه الصياغة القانونية . وهنا نرى أثر منظرى

المتجسديات وأثر القانون الروماني الذى استعانوا به فى تنظيرهم ·

اذا سلمنا بأن الله هو الحاكم الأوحد للكون وأنه المانح لكل سلطة ، نتج أن كل سلطة على الأرض ، روحية كانت أو زمنية ، انما هى مثل مصغر للسلطة الالهيــة ، قائمة بأمرها · ذلك كان الاعتقاد المشترك فى العصر الوسيط · غير أن هذا الاعتقاد قد داخلته منذ البدء عوامل الهدم بفضل قراءة القدماء ، فالقول بأفضلية النظام الملكى على سائر النظم لا يمكن الا أن يداخله الشك بفضل المقارنة الارسطوطاليسية بين مختلف النظم والدساتير · ولكن دور الحجج الدينية مضــافا اليها فكرة « السيد » الجرمانيــة (سيد الأتباع المحاربين وسيد الأرض ومن عليها من القن) كان من شأنها تغذية الاتجاه الى الاشادة بشخص الملك اشادة تعلو به فوق الجماعة التى يرأسها علو الله على الكون ، لا بل هو قد أسند اليه نوع من الألوهية بما هو خليفة الله على الأرض · ويبقى أن هذه التعلية لشخص الملك لم تنفصل يوما طوال العصر الوسيط كله عن توكيد هذه القضية : ان العلاقة بين الملك والجماعة تقوم فى حقوق وواجبات متبادلة بين الطرفين اللذين يتكون الكل العضوى من اتحادهما · فالسيادة لم تكن قط حقا صرفا بل كانت فى المحل الأول واجبــا ، وما يزيدها طابعها الالهى الا ابهاظا لأنها بهذا المنظار تكليف ، فالحكام مجعولون للشعوب وليس الشعوب للحكام · كل هذا تلخيص فى ربط الأعلوية بالمنصب لا بالشخص ثم فى التفرقة الصريحة بين هذين الحدين ومهد الطريق لظهور فكرة السيادة الشعبية بفضل تطبيق قواعد القانون الرومانى على المتجسديات ·

فقد كان من تعاليم الكنيسة أن الانســانية قد عرفت قبل الخطيئة زمنا سعيدا عاشت فيه وفاقا لقانون الله وقانون الطبيعة ، وساد فيه الاشتراك فى الخيرات والحرية والمساواة · كانت الكنيسة تريد بهذه العقيدة دعم أعلويتها ولكن مناهضيها رأوا فيــه دليلا على أن نشوء الحكام انما كان قرارا اتخذه الناس بعد الخطيئة : عقد تبعية أشبه بالتكليف الذى سبق ذكره · وما يتنافى ذلك مع أصل

الملكية وحقها الالهيين ، فما كان الشعب الا أداة بيد الله ، بنفثه وحده أمكنته ولادة الحكام • وكان أن انتصر هذا الرأى انتصارا حاسما بفضل هذا النص الوارد في موسوعية جوستنيان : « ومنطوق الامبراطور أيضا (أى بالاضافة الى قرارات مجلس الشيوخ)له قوة تشريعية ، لأن الشعب ، بالقرار الملكى الخاص بأعلويته ، قد حول اليه جميع أعلويته وسلطته كاملتين » • يبقى السؤال : هل هذه التبعية المختارة بمقتضى هذا التحويل هبة لا تمنع بقاء جوهر الامارة (امبريوم) فى حضن الشعب أم هى نزول لا رجعة فيه عن جميع صلاحياته ؟ هنا خرج مارسيل البادوى بنظرية تصدق على كل حكم أيا كانت صورته ، مؤداها أنه ما دام الحاكم جزءا من الكل وما دام الجزء ، ولو كان الجزء الرئيسى ، أقل شأنا من الكل وما دام اختيار التبعية هو فى حد ذاته تشريع ، فالشعب هو المشرع الأول والحاكم مقيد بالقوانين فى كل ما يضع ، فما هو الا الأداة التى تصرف بواسطتها المتجسدية أو الجامعة أمورها • وأضاف نيقولا الكوسانى الى ذلك أن التشريع والادارة أساسهما الانتخاب المعرب عن الادارة المشتركة والذى يصبح به الحاكم شخصا عاما أو مشتركا ، فما هو بمستطيع أن يقوم مقام الأب من الأعضاء الا اذا سلم بكونه من خلق الكل • هذه النظريات كانت تتضمن عدا مبدأ التفرقة التى سبقت الاشارة اليها بين الشخص والمنصب نظرة الى الحاكم أيا كان ، امبراطورا أو بابا ، تسوى بينه وبين كل من رأس متجسدية أو اتحادا مهنيا ما • فلا غرو أن دانت العصور الوسطى للمتجسديات بفكرة الدولة ذات المؤسسات التمثيلية أو النيابية : فالامبراطور ليس الامبراطورية ، وانما هو يمثلها بفضل منصبه ويمثل من تألفت منهم رعيته ، كذلك حقوق الشعب : انها ليست الحقوق الشخصية لمجموع الأفراد بل الحق العام الذى يتمتع به مجلس مؤلف دستوريا ، طبقت عليه القاعدة المستمدة أيضا من المتجسديات : قاعدة الأغلبية باعتبارها تمثل الكل • وهو ما يعنى ، اذا أردنا التعبير عن هذه الفكرة تعبيرا

دقيقا ، أن المجلس التمثيلي يقوم مقام جميع من يمثلهم بحيث تكون لقراراته ذات الصفة القانونية التي كانت لمجلس الجميع — لو أمكن اجتماع الجميع فى مجلس واحد . هؤلاء الممثلون أو النواب لا يمارسون سلطاتهم بما هم أفراد ولا يتمتع مجلسهم بحقوقه وواجباته بما هو مؤلف منهم كأفراد بل بما هو (وهنا نصادف فكرة أخرى مستمدة من المتجسديات) « شخص وهمى » أو افتراض قانونى . وكما أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر قرارا بالحرمان ضد المتجسديات لأن المتجسدية شخص باق على تعاقب الأجيال ، مما يجعل مثل هذا القرار يقع على أجيال بريئة ، كذلك تلزم قرارات الملك من أعقبه على الحكم لأن الذات الحاملة حقيقة للحقوق والواجبات ليست الملك بما هو جسد بل الدولة بما هى أيضا « شخص وهمى » .

خلاصة القول هى أن الفكر الوسيط بعد أن بدأ من معتقدات أو مسلمات من شأنها أن تؤدى الى توحيد السلطة توحيدا مطلقا سواء فى المجال الزمنى أو الروحى قد انتهى فى الواقع الى ثنائية لا علاقة لها بالغائية ، متعددة الأوجه : بين الملك من حيث فرديته ومن حيث منصبه ، بينه بما هو حاكم وبين الشعب بما هو محكوم ، بين الشعب وبين مجلسه التمثيلى ، وأخيرا بين الأفراد الذين تتألف من عددهم الجماعة أيا كانت وبين الحامل أو الذات الحاملة حقيقة للحقوق والواجبات والتى هى « شخص وهمى » . غير أن هذه النتائج لا تعنى أن مفكرى العصور الوسطى قد رجعوا عن مقدماتهم ، فقد ظل تصورهم للجسم السياسى ، على حد تعبيرهم ، تصورا عموديا قمته الله وظلت نظرياتهم بالتالى نظريات مثالية أى لا تنفصل عن استخراج ما يوجبه كلام الله أو بالأصدق تفسيره . ومنه نرى مدى الصدمة التى أثارها ماكيافللى اذ قال باسلوبه المبضعى : « كم تخيلنا من نظم لم ترها عين قط . فعلام هذا التخيل وأنت ان لم تعلم الا ما وجب فانما تعلم ما ينفيك وليس ما يبقيك ؟ » ولكننا قبل أن ننتقل الى الكلام عن عصر ماكيافللى ، عصر النهضة ، ينبغى علينا

أن نقول كلمة عن أحد العوامل التى كان لها الأثر الحاسم فى بعث هذه النهضة وأعنى به نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ٠

الى جانب ما رأيناه من ظهور طبقة رجال الأعمال نتيجة للتحسن المطرد فى الانتاج ووسائله من القرن العاشر الى الثالث عشر ظهر أيضا أناس اشتغلوا بالقراءة والترجمة والدرس والتعليم فتألف منهم ما يسمى اليوم بالانتليجنسيا أو المثقفين وان تسموا هم باسم الفلاسفة بعث على ظهورهم اكتشاف النصوص اليونانية واللاتينية خلال الحروب الصليبية أو المعاملات التجارية ، عن طريق العرب أو عن طريق العلماء الهللينيين المنتشرين فى الشرق ٠ ولذا كان أول ما شغف به هؤلاء المثقفون الذين آثروا قراءة فرجيل والقديس أوغسطين على قراءة سفر الجامعة هو الانكباب على دراسة القدماء لا قطع الصلة بهم ٠ فموقفهم قد عبر عنه أجمل تعبير برنار ذى شارتر الذى أدار مدرسة شارتر فى القرن الثانى عشر اذ قال: «اننا أقزام نقف على أكتاف عمالقة ٠ نرى ما لا يمتد بصرهم اليه ، ليس لأننا أحد نظرا بل لأنهم يرفعوننا » ٠ ومنه نرى أن تسميتهم أنفسهم أيضا بالمحدثين كانت تصدر عما تبينوه من أن « الحقيقة بنت الزمن » كما قال أيضا برنار ٠ ويكفى أن نتذكر الفكر الانسانى فى كل مكان وزمان الى ربط الحقيقة بالقديم حتى نتبين مدى ما تنطوى عليه هذه العبارة من التجديد ٠

كان بين هؤلاء المثقفين فريق لم يتورع عن نقد البابوية لميلها الى التحالف مع الأثرياء الجدد نقدا لاذعا بلغ حد اتهامها بأنها قد جعلت اسم المسيح النقود ــ اشارة الى كلمة البابا جريجوار السابع : « ان السيد المسيح لم يقل : ان اسمى العرف ، وانما قال اسمى الحقيقة » ٠ ولكننا اذا اقتصرنا على الاتجاهات ذات الأثر الدائم واذا اتخذنا مدرسة شارتر نموذجا للمراكز العلمية فى القرن الثانى عشر رأيناها لا تغفل دراسة « الفنون الثلاثة » ويراد بها النحو والبلاغة والمنطق ، الا أنها آثرت على دراسة « الأصوات » دراسة

« الأشياء » التي تعكف عليها « الفنون الأربعة » ويراد بها الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . هذا الاتجاه الذى غذاه العلم العربى اليونانى والذى اتسم بالطلعة والملاحظة والبحث قد سبك العبارة عنه هونوريوس المسمى بالأوتانى نسبة الى مدينة أوتان بفرنسا (وهو أشهر من عملوا على اذاعة المنحى الجديد) اذ قال : « منفى الانسان الجهل ، وموطنه العلم » .

هذا الطراز من المثقفين لم يكن ليتبرعرع الا فى المدن . لذا صب السلفيون لعناتهم على المثقفين والمدن معا . فى المدينة بدأ المثقف يعد نفسه رجلا ذا مهنة لا اختلاف بينه وبين سائر أهل المدينة ، مهنته درس « الفنون الحرة » وتعليمها . فاذا سألته : وما الفن ؟ أجاب أنه تقنية (من اليونانى ، ومنه اليوم التقنية والتكنولوجيا) ، الفن هو كل نشاط عقلى مستقيم يطبقه الذهن على صنع الأدوات المادية والثقافية . وأدى ذلك الى الشعور بأن العلم لا يجب اكتنازه وحبسه بل تداوله وترويجه ، فالمدارس ورش بضائعها الأفكار . واذا كان القرن الثالث عشر قد صار قرن الجامعات فانه كان أيضا قرن ما سميناه بالمتجسديات . فكلما وجدت بمدينة من المدن مهنة تضم عددا كبيرا من الناس نظم هؤلاء صفوفهم دفاعا عن مصالحهم وسعيا الى الاحتكار . على هذا الغرار تكونت الجامعات من خلال التعامل بين المعلمين والطلبة ثم بين هؤلاء وسائر أهل المدينة وبينهم وبين السلطات المدنية والكنيسة . ومع ظهورها رويدا رويدا كقوة يعتد بها لعدد طلابها ومثقفيهم لم يكن بد من أن يقع صدام كان وضع القوانين يعقب فيه فى أغلب الأحايين الوقائع ولم تخرج منه الجامعات منتصرة الا بفضل تمساكها واصرارها . فمن المعلوم أن جامعة باريس مثلا لم تحصل على استقلالها النهائى الا بعد أحداث عام ١٢٢٩ م الدامية التى استشهد فيها عدد من الطلبة فأعلن الاضراب الجزء الأعظم من أعضائها وانسحبوا الى أورليان . أما النشاط العلمى والفكرى فقد بلغ حدا

لم تعد معه الكتب المخطوطة موضـوعا كماليا بل عدة للدراسة ، بحيث يمكن القول بأن الكتاب قد ولد بفضل الجامعات قبل أن تعيد المطبعة ولادته في عصر النهضة ، عصر « الولادة الثانية » كما يقال في اللغات الأوروبية ٠

ولكن مع طلوع القرن الرابع عشر بدأت بأوروبا السنوات العجاف التى دامت ما يزيد على القـرن : الأوبئـة ، توقف زيادة السكان ثم تناقصهم نتيجة للمجاعات ، ذوبان الفضة والذهب فى الحروب التى لا تنتهى : حرب المائة عـام وحرب الوردتين ، عدا الحروب الاسبانية والايطالية ٠ ونجم عن هذا أن صارت الأغلبية الساحقة من الاقطاعيين تفضل تحصيل ريع أراضيها نقدا لا عينا ٠ وزادت الهوة عمقا بين ضحايا هذا التطور والمنتفعين منه ، وبخاصة فى المدن حيث انقلب معظم الحرفيين الى أجراء معدمين لحقوا بصفوف الفلاحين ، بينما زاد كبار البورجوازيين ثراء باستغلالهم وبالتوسع فى شراء الأراضى فامتزجوا بالطبقتين اللتين كانت لهما السـيطرة حتى ذلك العهد : النبلاء والأساقفة ٠ وساعد هذه الطبقات الثلاثة على تثبيت وضعها وسط الأزمات أن سارعت الى سندها السـلطة السياسية التى ظل همها الأول حتى عهد الثـورة الفرنسية حماية ما سمى باسم « النظام القديم » ٠ وكان العصر عصر تبلور القوميات وظهور الدول الوطنية من خلال تصارع الأمراء ، ملوكا كانوا أو طغاة ، وهو الأمر الذى فهمه الأقوياء ، فهموا أن العصر عصر الأمير فسارعوا الى خدمته والانخراط فى وظائفه والاندماج فى حاشيته كسبا للثراء والسلطة والجاه ٠ وفى هذا المعترك بدأ ينقرض مثقف القرون الوسطى ليحل محله شخص جديد : المتأنس (١) ٠

---

(١) من تأنس أى صار انسانا ٠ سيرى القارىء لم اخترنا هذه الترجمة ٠ استخدمت الكلمة الاوروبية « هومانيست » للمرة الأولى عام ١٨٠٨ لمن تخصص فى دراسة الآداب اليونانية واللاتينية ، لهذا جازت أيضا ترجمتها بالمتأدب ٠

ذلك أن السلطات الجامعية لم تتوان عن تجميد منح الطلبة واعاناتهــم رغم الغلاء المستمر دون أن تنسى رفع أسعار خدماتها ، سواء تعلقت بالمسكن والمأكل أو بالكتب والمعدات ورسوم التسجيل والتقدم للامتحانات وطقوس التخرج ، الخ مما صد عن الجامعة صفوة الطلبة الذين كانوا يقصدونها طلبا للعلم لا للمناصب . أضــف الى ذلك أن كثيرا من الجامعيين اتجهوا الى من بيدهم المال يغدقونه في انشاء الكليات التى لا يتسنى دخولها الا لأبناء الخاصة . وفى النهاية تحولت الجامعات الى مؤسسات أرستوقراطيــة : فالمتانس أرستوقراطى . هذا عن الجامعة ، فماذا عن التعليم ؟ .

استلهم متأنسو القرن الخامس عشر اذ أخذوا فى تعديل برامج التعليم الوسيط القائم على دراســة « الفنون الحرة » ، استلهموا تصور شيشرون للخطيب بما هو الرجل الذى يتحقق فيــه كمال الانسان بالتمكن من مواضيع العدالة والحقوق والواجبات ودساتير الدول وطرق حكمها أى ، بالاختصار ، من الفلسفة العملية فى جميع مجالها ، حتى ليصح القول أن الهدف من نهضتهم أو « بعثهم » انما كان بعث الطراز الشيشرونى . ومنه كان التعليم فى المحل الأول دراسة لعلوم اللغة وهو ما يعنى دراسة النصوص الخالدة التى هى بمثابة النموذج والقانون أو السنة . وكما أن النموذج كان فى نظر روما خلال القرن الأول هو النصــوص اليونانية كذلك وجد متأدبو عصر النهضة قانونهم فى روائع النصوص اللاتينيــة أولا ثم بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك عام ١٤٥٣ م وهجرة العلماء البيزنطيين الى أوروبا فى النصوص اليونانية ثانيا ، هذه النصوص التي اعتبروا أنفسهم ورثتها . فاذا كان عصر النهضة قد ظهرت فيه فجوة لم يكن لها وجود فى العصر الوسيط بين « المتادبين » و « التقنيين » فانا ندين لهؤلاء المتأدبين الأخصائيين لا باحياء اللغات القديمة فقط مع ما يتضمنه ذلك من كشف خفاياها ووضع قواعدها ومن التجديد الشامل فى الدراســـات الأدبية والنحوية والبلاغية

وتعليمها ، بل ندين لهم أيضا بالمناهج التى استنوهـا فى نشر المخطوطات القديمة مع تصحيحها ومقارنتها وتحقيقها ـ وهو الأمر الذي كانت له أبعد الأصداء ، يكفي أن نذكر أن حركة الاصـلاح الديني ما كان ليشتد سباعدهـا لولا المقارنة بين الترجمة اللاتينية المعتمدة من الكنيسة والأصل اليوناني الذى نشره ايراسم طباعة سنة ١٥٠٥ م للمرة الأولى • يبقى أن شيشرون نفسه في محاورته الخطيب لم يجد جوابا عن هذا السـؤال : وكيف يؤدى التقعر فى الآداب أو كيف يؤدى أى نوع نتخيله من التعليم الى كمال الانسان أو إلى تحليه بالفضيلة ؟ أو هو قد علق الاجابة بترك الأمر لما تغرسه الطبيعة في المتعلم من المواهب • ولهذا لم نكن نعجب اذا إنتهى الأمر بأن إنفضحت هذه الايديولوجية الشيشرونية وتكشفت الفكرة المستترة وراءها فصار محك التعليم نفعه وصار هم الجامعات صراحة في القرن السادس عشر هو وضع البرامج والكتب المدرسية التى تؤهل أبناء الطبقة الارستوقراطية لشغل مناصب الدولة •



٢ ـ حياة المؤلف لابويسيه وأعماله

ولد لابويسيه بهذا القرن الذى بدأ ولما تنقضي بضعة أعوام على وصول كريستوفر كولومبوس الى سواحل أمريكا (١٤٩٢ م) وفاسكو دى جاما الى الهند (١٤٩٨ م) (١). ولد فى الأول من نوفمبر عام ١٥٣٠ م بمدينة سارلا الى الجنوب من ليموج والى الشرق من بوردو. ولا يزال يوسع السائح وهو يمر بشوارع هذه المدينة الصغيرة أن يعجب بجمال منازلها التى تشهد منذ القرن السادس عشر بالدعة والرخاء. ونعلم أن الملوك وان اختفى بظهورهم واشتداد نفوذهم الحلم القديم حلم « المملكة المسيحية » ، قد استندوا مع ذلك فى تقسيم المدن والأقاليم الى تقسيمات الكنيسة وبدءوا بها ، فكانت سارلا من الوجهة الكنسية أبرشية وكانت من

---

(١) من المقطوع به أن الصين كان لها أسطول وصلت سفنه الى سواحل افريقية وكان لأميرالاته مشاريع تشبه مشاريع أقرانهم الأوروبيين ولكن الصين كانت امبراطورية موحدة أى دولة لا ترى وجها لجمع المال الا بتحصيل الضرائب والمكوس وترتكز الى بيروقراطية متحجرة لا ترى فى أمثال هذه المشاريع الا مغامرات لا طائل من الانفاق عليها ، بينما كانت أوروبا مسرحا تتصارع فيه النظم السياسية على اختلافها .ويتصارع فيها على احتكار الدول وتاسيسها ملوك كانوا هم انفسهم كما قال أحد المؤرخين أول أصحاب المشاريع ، زاد شرههم للذهب بقدر استنزافهم له فى الحروب . ويكاد يكون من المقطوع به أيضا أن فاسكو دى جاما قد اعتمد فى عبور المحيط الهندى على الملاحين العرب المنتشرين فى أفريقيا دون أن ينتبه أحد الى أن وصوله الى الهند كان يعنى النجاح فى تطويق العالم الاسلامى .

الوجهة المدنية تدخل في عداد المتصرفيات التي ينوب فيها عن الملك متصرف (بايي اوسنيشال) يؤدي باسمه الوظائف القضائية والادارية . الا أن هؤلاء المتصرفين الذين كانوا ينتمون الى الطبقة الأرستوقراطية آثروا البقاء في حاشية الملك او اثر الملك ابقاءهم في حاشيته فتركوا أعمالهم لنوابهم ، وكان أبو اتين دي لابويسيه أحد هؤلاء النواب . كان اذن مؤلفنا ينتمي الى طبقة ميسورة مثقفة . الا أن أباه أدركه القدر وهو طفل فتولى أمره عمه ، وكان من رجال الكنيسة المتضلعين في اللاهوت والآداب ، فنشأ اتين الذي بدأت معالم ذكائه الخارق تتبين وهو لما يبلغ العاشرة على تقديس « الانسانيات » اليونانية واللاتينية . وساعد على محبته لها وتمرسه بها أن حركة النهضة قد قويت في سارلا بنوع خاص اذ كان أسقفها كاردينال ايطالي (هو الكاردينال نيقولو جادي) ربطت أواصر القرابة بينه وبين آل مديسيس الفلورنسيين وانطبع تبحره بطابع المتأنس الايطالي حتى أنه كان يحلم بأن يجعل من أسقفيته جمهورية للآداب والفنون مثلما كانت أثينا . في هذا الوسط الراقي الثقافة انكب لابويسيه على الدرس . ولا ندري على التحقيق بأي مدرسة التحق ولكن الشيء المؤكد هو أن أساتذته قد لمسوا من نجابته ما يؤهله للالتحاق بالجامعة فوجهوه اليها . وكان أن التحق بجامعة أورليان التي تشهد سجلاتها بأن اتين دي لابويسيه قد جاءها لدراسة القانون تأهبا للاشتغال .... لا بل بالأدب ، بل بالقضاء .

ولسنا نعجب لذلك كثيرا . فقد رأينا أن لابويسيه كان ينتسب إلى هذه الشريحة الاجتماعية التي كان يخرج منها القائمون بالأعمال العامة ، ثم أن دراسة القانون نفسها كانت تصطنع منهجا لا يختلف عن المنهج المتبع في دراسة النصوص الأدبية ، وأعني به منهج التفسير النقدي الذي لا يقف عند بيان الفروق بين المذاهب والاحاطة بها بل يتعداهما الى التفسير النحوي للصيغ

التشريعية وتحليل مدلولات الكلمات واستعمالاتها ثم الاستعانة بالتاريخ توضيحا لمرادها . فدراسة القانون كدراسة الانسانيات كانت في المحل الأول دراسة لغوية فيلولوجية (أى منصبة على النصوص) تستمد غذاءها من التفكير الفلسفى والبحث التاريخى ومن اعمال النقد والثقة بسلطان الحجة والاستدلال . وكان هذا المنهج الذي يجعل من دراسة القانون جزءا من الانسانيات كدراسة الشعر والفلسفة هو المنهج المتبع فعلا في جامعة أورليان التى كانت تعد ثانية جامعات فرنسا بعد جامعة باريس . واذا كانت شهرة مدرسة القانون بها لا تعدل شهرة مدرسة بولونيا أو بادو بايطاليا فقد كان لها أيضا حظ وافر من أساتذة القانون الفطاحل — يكفى أن نذكر منهم كوجا الذى لا يزال أحد شوارع الحى اللاتينى يحمل اسمه حتى اليوم والذى يرجع اليه الفضل فى أن أعاد الى القانون الرومانى المعنى الذى كان له فى المجتمع الذي وضع فيه . ويجدر بالذكر أيضا أن كالفن ، أعظم رجال الاصلاح الدينى بعد لوثر ، قد درس بها بين ١٥٢٨ و ١٥٣٣ م وأن عددا من زملاء لابويسيه بهذه الجامعة وفى مقدمتهم هوتمان قد صاروا من مشاهير هذه الحركة ، ولا غرو فى ذلك لما نعلمه من اتفاق رجال الاصلاح والمتأنسين على هذه الدعوة : الرجوع الى الأصول .

حصل لابويسيه على درجة الجامعة فى ٢٣ سبتمبر عام ١٥٥٣ م وحصل من الملك هنرى الثانى على تصريح يبيح له شراء حق العمل قاضيا ببرلمان بوردو (١) قبل بلوغ السن القانونية

(١) بلغ من احتياج الملك فرنسوا الأول الى المال أنه جعل الحصول على المناصب بالشراء وان لم يعف ذلك طالب الوظيفة من الامتحان . هذا وكانت كلمة البرلمان تطلق على المحكمة وكانت المحكمة نفسها مركبا قانونيا معقدا يضم عدة « غرف » يتميز شاغلو كل منها برداء خاص ، أولها وأعلاها مرتبة الغرفة الكبيرة ، أما الغرف التالية فكانت تنقسم ويتعدد كل قسم منهـا بحسب الاحتياجات كغرفة التحقيقات وغرفة العرائض ، الخ . هذا وكان الأعضاء بعضهم من رجال الدين والبعض الآخر مدنيين ولكن الغلبة صارت للأخيرين مع مرور الزمن .

(وهي الخامسة والعشرون) وبدأ ممارسة أعماله بها بعد الإمتحان في ١٧ من مايو عام ١٥٥٤ م ٠ فلما جاء مونتني ليعمل هو أيضا قاضيا بهذه المحكمة عام ١٥٥٧ م٠ انعقدت بين الرجلين الصداقة التى خلد مونتني ذكرها في مقالاته ٠ ولسنا نعلم في أي المنازعات قضى لابويسيه أو مونتني ولكنا نعلم أن البرلمانات قد بدأت خلال القرن السادس عشر تشارك مشاركة ملحوظة في الحياة السياسية كان من جرائها أن اتخذ برلمان بوردو بازاء مآسي الصراع الديني المتصاعدة في جنوب فرنسا الغربي موقفا اتسم بالولاء للملكية وبالاستمساك بالعقيدة الكاثوليكية على السواء ، أدى بقضاته الى اعتبار الهجنوت (وهو الإسم الذى أطلق على أشياع كالفن بفرنسا) هراطقة ، فأوقعوا بهم عقوبات ضارية بلغت الزج بهم الى المحارق ٠ ولكن المحارق لم تزد الحزازات الدينية الا سعيرا ٠ عندئذ أوفد لابويسية الى باريس في مهمة ظاهرها الاحتكام الى مجلس الشورى الملكي في خلاف بين قضاة بوردو وسلطاتها البلدية ولكن باطنها كان أدق وأعمق ٠

كان الملك في هذا الوقت ، ديسمبر ١٥٦٠ م ، طفلا في العاشرة ٠ وكان زمام الحكم بيد أمه كاترين دى ميديسيس وكان هم هذه المرأة الايطالية الأول هو الحيلولة دون انقلاب الصراع الديني الى حرب أهلية تهدد النظام أو الملك كله ٠ لهذا كانت تستمع طواعية الى النصح الذى كان يسديه اليها مستشارها ميشل دى لوبيتال الذى قام لابويسيه بزيارته في باريس ٠ وكان الرجلان على اختلاف السن بينهما بما يبلغ ربع القرن قد جعلا ليتفاهما : كلاهما ضليع في علوم القانون ، كاره لرد القضاء الى شكلياته ، متحمس للانسانيات ، كما كان كلاهما مستقيم الخلق ، صادقا في وطنيته ٠ فكلف ميشيل دى لوبيتال صديقه بأن يشرح لبرلمان بوردو الذى انتصر أعضاؤه للفريق الكاثوليكي المتعصب سياسة التسامح الديني التى كان يدعو اليها ٠ ونجح

لابويسيه أول الأمر في مهمته حتى كاد يتملد القاء وظنى يضم رجال الدين من الطرفين ويمهد لاخراج سياسة التسامح من مجال التصح الى حين التشريع • ولكن وضوح تفكيره وواقعيته سرعان ما أقنعاه بأن سياسة التسامح آيلة الى الاخفاق لتوالى أعمال العنف من الجانبين • ومع هذا لم يتردد حين ظهر مرسوم ١٧ يناير ١٥٦٢ م القاضى بترك حرية العبادة لأشياع كالفن دون اعتبارهم هراطقة في أن يكتب مذكرة شرح فيها النتائج المحسوسة التى تنجم عن المنازعات الدينية وبين بنظر ثاقب كيف يؤدى الردع الدموى لا الى القضاء على الأعداء بل الى تفاقم العداوة تفاقما يهدد البلاد بحرب أهلية تحرم الدولة من صفوة العقول ـ وأغلب الظن أنه كان يفكر فيمن استقطبهم من أساتذته وأصدقائه • ثم لما بلغت المذابح مداها وضاق لابويسيه برفض بعض قضاة بوردو الاذعان لكل نصح بالمهادنة كما ضاق بالانقسامات الدفينة التى تناهبت القصر الملكى نفسه كتب مذكرة فى قانون يناير ١٥٦٢ م لم ينكر فيها الكاثوليكية بما هى دين للدولة الا أنه دعا الى « كاثوليكية مستصلحة » تترك مجالا للتوافق بين الكاثوليك والبروتستانت •

بعد ذلك نزل به مرض لا نعلم هل كان الديسنتاريا أو الطاعون • فطلب نقله الى أرض تملكها امرأته • ولكن الوهن ألجأه الى النزول عند صديق كانت تصله بمونتنى أواصر المصاهرة ، على بضع كيلومترات من بوردو • وفى ١٤ أغسطس أدرك دنو نهايته فكتب وصيته تاركا مكتبته لمونتنى عنوانا على صداقته • وفى ١٨ أغسطس لفظ نفسه الأخير ومونتنى بجانبه •

لم يلبث مونتنى أن نشر عام ١٥٨٠ م ، مع الطبعة الأولى لكتابه الخالد مقالات ، أعمال صديقه الأدبية • وكانت قسمين : شعر نظمه في مقتبل العمر وترجمات عن المؤرخ اليوناني كسينوفون ، منها الفصول الستة الأولى من كتابه الاقتصاديات (وكانت تنسب

اذ ذاك الى أرسطو) وأخرى متعددة عن بلوتارك ، منهـــا قواعد الزواج ورسالة العزاء التي كتبها بلوتارك الى زوجته تعزية لها في وفاة ابنتيهما . نبين في هذه الترجمات ما وصفنـــاه من ثقافة المتانسين وتأدبهم الذى يتجلى في شروحهم وتعليقاتهم وفي حرصهم الصبور على استعادة النصوص القديمة كاملة استنادا الى مخطوطات منقوصة أو محرفة في كثير من الأحايين . ولكن مونتنى لم ينشر أعمال صديقه النثرية لأنه رأى بها كما قال « حياكة أدق وألطف من أن تخرج الى الجو الخشن الثقيل الذى اتسم به هذا الفصل الفاسد » وهى عبارة تحوى اشارة الى الصراع السافر الذى انتهت اليه العلاقة بين حركة الاصلاح الدينى وبين الدولة (أى الملكية) والذى تجاوز الحد الذى لا رجعـــة بعده بمذبحـة الهجنوت عام ١٥٧٢ (١) . والراجح أن لابويسيه كان قد قرأ « مقال فى العبودية المختارة » على بعض أقرانه بجامعـــة أورليـــان وأن بعضهم نسخوه ومنهم من كان أو صار من أشياع كالفن ، فأدرجـوا فى كتاباتهم ومنشوراتهم التأليبية المتعاقبـــة مع تصـــاعد العداء واستحكامه مقتبسات تطول أو تقصر من هذا المقال . وهذا هو ما يقوله مونتنى صراحة فى صدد مقال لابويسيه على التحديد : « لقـد عدلت عن انزال هذا العمل بهذا المحل لأنى رأيته قد خرج الى الضوء منذ ذلك الحين (أى منذ مات صديقه) ، ولغاية غير بريئـــة ، وأخرجـه الساعون الى اشاعة الاضطراب بمدينتنا دون أن يتســـاءلوا أهم بذلك مصلحوها ومزجوه بكتابات أخرى من عجينهم » . والحق أنهم لم يقفوا عند مزجه بل هم كما يقول مونتنى أيضا « قد أعادوا تعميده فسموه ضد الواحد (كما نقول نحن تهافته) » . وبـــذا زجوا لابويسيه فى زمرة الكتاب الذين أطلق عليهم اسـم « أعداء

---

(١) وهى المذبحة المعروفة بليلة القديس بارتولوميو . بدأت بقرع النواقيس من كنيسة سان جرمان دوكسروا بباريس .

الملوك » (موناركوماك) وجعلوا من « مقال فى العبودية المختارة » نصا يستخدمه المجاهد السياسى لأغراضه ـ وأكاد أضيف : قبل أن يفهم غرضه . وربما كان هذا الشطط هو الذى دعا مونتنى أن يهون بعض الشىء من مقال صديقه ، فقال : « وهو مقال خلع عليه اسم العبودية المختارة ولكن من لا علم لهم بذلك أعادوا تعميده منذ ذلك الحين فسموه تهافت الواحد . كتبه على سبيل التمرين فى مطلع شبابه اشادة بالحرية فى وجه الطغيان » (١) . أما المراد بقوله « فى مطلع شبابه » فهى الثامنة عشرة (أى عام ١٥٤٨) بحسب الطبعات الأولى من المقالات وفى طبعة ظهرت عام ١٥٩٣ وفقا لتصحيح بيد مونتنى السادسة عشرة ـ أى عام ١٥٤٦ : فبأى التاريخين نأخذ ؟ .

كانت الوحدة السكنية فى الريف هى القرية التى خلق أهلها ليعملوا فى الأرض المحيطة بهم دون أن يملكوها وليعبدوا الله فى الكنيسة المشيدة وسطها . لذا كانت القرية من حيث هى جماعة من الناس يتشاركون العمل فى الأمور التى تخصهم جميعا (كتعبيد طريق أو بناء جسر أو فض نزاع أو تحديد الأرض المشتركة للرعى أو اتخاذ موقف مشترك ازاء مطلب جديد للنبيل الخ .) ، كانت تسمى باسم المشتركية (كومين) كما كانت تسمى من وجهة الادارة الكنسية أو بما هى خلية روحية بالأبرشية (٢) . وكان النبيل يمتلك الأرض وما عليها ، يملك ما خلق فى سمائها من الطير

---

(١) مونتنى ، **مقالات** ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٨ . والمراد بالواحد هنا هو الملك لأن الكلمة الأوروبية (مونارك) التى تترجم بالملك مشتقة من كلمتين يونانيتين تعنيان « حكم الواحد » .

(٢) ويل للبلاد التى خيم عليها سلطان الدولة قبل أن تخوض شعوبها ـ لعوائق جغرافية وتاريخية ـ مثل هذه التجربة فى التضامن على المصالح التى عرفتها أوروبا فى شكل المتجسديات فى المدن والمشتركيات فى الريف .

وما شقها من الطرق والأنهار ، وكان يقتطع أجزاء من هذه الأرض لمن وهب نفسه لخدمته بسيفه من الفرسان وان غلب أن يكون ذلك في صورة الحيازة لا التمليك • أما الفلاحون فكانوا يعملون في خدمة النبلاء والفرسان بمحاريثهم ومناجلهم ، يعيشون بما يبقى لهم من المحصول بعد أن يأخذ هؤلاء حصتهم ، وحتى هذا المتبقى كانت تثقله شتى الضرائب المباشرة وغير المباشرة • لهذا ازدحم تاريخ العصور الوسطى بالثورات الشعبية (بالمعنى الذى لا تعنى فيه كلمة الشعب أهل البلد كله بل المستضعفين منهم) التى انتشرت فى أوربا خلال الفترة بين ١٣٣٠ و ١٤٢٠ بنوع خاص حتى صار لكلمة « المشتركية » معنيان معنى الوحدة الادارية ومعنى الثورة أو الانتفاضة • وكان أهم هذه الثورات وأشهرها الثورة التى وقعت فى المنطقة التى تقع فيها باريس (ايل دى فرانس) والتى عرفت باسم صار يطلق بعد ذلك على جميع هذه الثورات : **جاكرى** (نسبة الى جاك وهو أكثر الأسماء شعبية) • وفى عام ١٥٤٨ أى حين كان لابويسيه فى الثامنة عشرة من عمره اندلعت فى لاجوين (وهى الاقليم الذى نشأ فيه مؤلفنا وعمل قاضيا بعاصمته بوردو) ثورة اجتاحت جنوب فرنسا كله • ثورة كانت لا تختلف من حيث وصفها عن سابقاتها ، فهى أيضا كانت « جاكرى » ولكنها من حيث دلالتها قد ألفت حدثا جديدا كل الجدة ، بدأت به صفحة جديدة فى تاريخ ثورات الفلاحين بأوروبا ، صفحة لم تنته الا بانتهاء الحياة القروية نفسها فى شكلها المعهود ، مع تقدم المدنية الصناعية خلال القرن التاسع عشر • ذلك أنها كانت تختلف عن سابقاتها من وجهين :

١ — لم تكن مقصورة على الفلاحين وحدهم بل انضم اليهم بعض أهل المدن الذين مكنهم ثراؤهم من شراء الأرض والاشتغال بزراعتها •

٢ ــ لم تكن ثورة على نبيل أو عدد من النبلاء بل ثورة في وجه الدولة ٠ فقد فرض الملك فرانســوا الأول عام ١٥٤١ ضريبة على الملح وهي ضرورة حيوية لحاجة الفلاحين اليه لتجفيف اللحوم تهيؤا للشتاء ، فبدأت هنا وهناك حــركات من التمرد استفحلت استفحالا شمل المنطقة كلها عام ١٥٤٨ ٠ فلم يكتف الفلاحــون بطرد جبـــاة الملح الممقوتين بــل تعقبوهم الى المدن حيث ديارهم ومراكز عملهم فحاصروا بعضـــها واستولوا على البعض الآخر بينه مدينة بوردو نفسها ٠ وهناك أوقعوا الموت بكل من رأوه من الجباة أو توهموا أنه منهم ٠ ثم بعد ذلك اجتمعت حشودهم ببعض المنازل الفسيحة أو بالميادين العامة كيما يحرروا عرائض الى الملك (وكان اذ ذاك هنري الثاني) وكلفوا بعض الأعيان ســواء شــاءوا أو لم يشاءوا برفعها الى جلالتــه ٠ فكان الرد وعدا برفع شــكاوى رعاياه اكتفوا به فتفرقوا ٠ وفعلا رفعت الضريبة في سبتمبر عام ١٥٤٩ ٠ ولكن بعد أن أرسل اليهم الملك جيشا رادعا نشر الرعب في الاقليم ونكل بأهله شر تنكيل : حل برلمان بوردو وتسريح قضاته والغاء امتيازاته ولا نتحدث عن الارهاب الدموي فقد بلغ من قتلوا على سبيل « التأديب » مائة وخمسين رجلا ٠ ومنه تتضح الحدود التي تحرك في نطاقها المتمردون ٠ فهم لا يفكرون في المساس بسلطة الملك بل يحتكمون اليه : فالملك « أمير » وعادل ، انه يجهل محن الشعب التي يخفيهـــا عنـــــه وزراء السوء ، فأما هم فما اجتمعوا وتسلحوا الا بمشيئة الله ، وما مقتوا الا الجباة العاتين ، وما كرهوا ضريبة الملح الا لأنها « بدعة » ٠ فالأحداث قد دارت وكأن ثوارنا كان يصلهم حبل سري بمثل أعلى من الطيبة والرحمة لا يتوقعون منه الا العدل والمحبة ، فان كذب الواقع توقعهم آثروا تكذيب الواقع والامساك بمثلهم الأعلى ٠ ولا شك أن لابويســـيه قد تابع هذه الأحداث وأن هذه الظاهرة قد استوقفته : أن نرى شعبا بأسره (الشعب الذي ينتمي اليه هو نفسه) ينزه عن القسوة من تقع

بأمره أقصى القسوة ! وأقول لا شك لأنه ذكر هذه الظاهرة صراحة وان خلا مقاله من كل اشـــارة الى الأحداث التى أملت سـؤاله ٠ ولا أشك اذن فى أن لابويسيه قد كتب العبودية المختـــارة وهو فى الثامنة عشرة من عمره بعد ثـورة الفلاحين لا تعبيرا عن سـخطه على منطق الدولة بما هو منطق العدالة الارهابية بل لأن اخفاق هذه الثورة قد جعله يلمس شيئا من حدود المشروع الثورى ٠ ـ أهذا كل ما نستطيع قوله ؟ ٠

ان العبودية المختارة نص حلق كاتبه فى آفاق البلاغة تحليقا جعل سانت بيف لا يرى فيه الا نموذجا لامعا لما يكتبه الطالب النابغ فى فصل البلاغة ٠ ومعنى هذا الرأى أن النص المذكـور غير ذى موضوع أو بالأدق أن الموضوع فيه ليس الا مناسبة يستغلها الطالب ليبدى تمكنه مما تعلمه على مقاعد الدرس ٠ غير أن سانت بيف هذا كان مثالا فاضحا على ما كان يسمى بالناقد الأدبى أى رجـــلا همه الأول الحكم والقضاء على ما يقرأ ـ لأن الحكم والقضـاء يضفيان الجاه ـ لا أن يتفهم ويتعلم ٠ ولكننا سوف نرى أن هذا التحليق البلاغى انما كان أحسن السبل التى توســل بها الكاتب ـ وتلك ثقافته وثقافة قارئه ـ الى تصوير ما لمســـه من الواقع ٠ وأعنى بذلك أن لابويسيه ينم فكره عن واقعية ندر أن تتحقق ، ولا يخلو تحققها لدى شاب فى الثامنة عشرة من الغرابة ٠ لهذا كنت أرجح أنه انما رمى الرميـــة الأولى وهو بهذه السن ولكنـــه لم ينته من الاشتغال بالمقال الا فى سنى دراسته بجامعة أورليان بين ١٥٥٣ و ١٥٥٥ مستعينا بمناقشاته مع أقرانه ، اذ بالمناقشة تتبين الأفكار وان لم تتفق ، وبما اكتسبه من الاحاطة بعلوم القانون والتاريخ على يد أساتذته ٠ هذا عن تاريخ كتابة هذا المقال ، ننتقل الآن الى الحديث عن مصيره ٠



٣ ـ المقال فى العبودية المختار ، وطبعاته والآراء فى صدده

رأينا كيف صار مقال لابويسيه سلاحا في يد مناهضي الملكية. فلما استتب هذا النوع من الحكم واستتبت قواعد الدولة فى خلال القرن السابع عشر صار المقال نصا نادرا لا يسعى اليه الا القلة من القراء الذين تصدر طلعتهم عن ذكائهم الشخصى . ولكن مقالات مونتنى ظهرت لها طبعة جديدة عام ١٧٢٧ أشرف عليها بيير كوست فادرج فيها عدا أعمال لابويسيه الشعرية المقال فى العبودية المختارة ، فكانت هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها هذا العمل مصحوبا باسم مؤلفه ـ بعد مائة وأربعة وستين عاما من وفاته . بعدئذ عاد المقال يتكرر ظهوره مع كل طبعة من طبعات المقالات لمونتنى وبذا أيضا ظل جزءا منها لا استقلال له عنها . وبقى الأمر كذلك الى أن أخذت ريح الثورة تهب من جديد فى نهاية القرن الثامن عشر فعاد المقال الى الظهور فى كتابات ومنشورات شتى وفى صور مختلفة . مثال ذلك أن أغلال العبودية الذى أخرجه مارا فى طبعة جديدة بباريس عام ١٧٩٢ بعد طبعته الأولى بلندن عام ١٧٧٤ قد حوى صفحات متعددة بدت مستوردة من العبودية المختارة حتى أن البعض تحدث عن « السرقة الأدبية » . ذلك كان قدر العبودية المختارة : يظهر بظهور الاضطرابات ويمر بمرورها أو يبقى كأثر من آثار الأدب والوفاء .

ولكن الأمور اختلفت كلية عام ١٨٣٥ اذ قام لامنيــه للمرة الأولى بنشر مقال لابويسيه على حدة فى طبعـة أدرج بها هوامش بيير لاكوست وكتب لها مقدمة هامة . كان لامنيـه قسا وفيلسوفا أرهقته أحداث عام ١٨٣١ الذى شهد انتفاضـة شعب بولونيـا الكاثوليكى فى وجه القيصر وأحداث عام ١٨٣٥ الذى انتشر فيه الصراع الاجتماعى من باريس الى المدن العمالية مثل ليون مؤديا الى وقوف العمال فى وجه الدولة . فكانت النتيجة التى انتهى اليها فى صحيفته المستقبل التى جعل شعارها الله والحرية وفى العديد من كتبه هى أنه لا قيام للضمير المسيحى الا بالحرية وأن المسيحى يحق له أن يرفض طاعة الطغيان سواء كان روحيا أو زمنيا وسواء صدر عن الدولة أو عن القوى الاقتصادية . ويسعنا أن نتبين ماذا كانت من خلال هذا المنظار ـ وأود لو قلت : من خـلال هذا المنظار الأنوى ـ رؤية لامنيه لمؤلف المقال فى العبودية المختارة : رجل رأى فى الحرية حقا طبيعيا أو بالأدق حقا لأنهـا طبيعة ، طبيعتنا التى جبلنا عليها ، وامتلأ قلبه حبا لها ، أما بغضـه للطغيان فان هو الا الوجه الآخر لهذا الحب . وهنا يستعرض لامنيه شرح لابويسيه للوسائل التى يتذرع بها الطغاة فى خداع الشعوب واقفـا بنوع خاص عنـد التضليل بالدين فيقول : « لما كان النظـام ضروريا للمجتمع فقد انتهى البعض من ذلك الى أن عضوا واحدا من أعضاء المجتمع قد اختاره الله لحفظه وأنه لما أن يحل بالمكان الذى اختير له حتى تصبح مقاومته ، أيا كان ومهما صـنع ، مقاومة لله نفسه : نظرية ملحدة ، نتيجتها المحتومة سـوق الشعوب الى آخر درجات البله أو مجانبة التقوى ، وفى الشائع الى النتيجتين معا » . ثم يختتم لامنيه مقدمته مبشرا الشعوب بالانتصار المحقق للحرية على الطغيان. وهى بشرى أقل ما يمكن أن نقول عنها هو أن لابويسـيه ما كان الا ليتردد كثيرا فى زفها الى الشعوب . أعنى أن بهذه الخاتمـة ينكشف الفرق بين الرجلين : المؤلف وناشره . فلامنيه لا يرى بين

الحرية والطغيان الا هذا التناقض المحض المرســـوم بين اللفظين اللذين تزود بهما المرء اللغة التى يدرج عليها ، ثم هو بعدئذ يدخر محبته للحرية وكراهيته للطغيان ، فالحرية والطغيان موضـــوعان منفصلان لا خلط بينهما ولا مزج ، وان يكن مزج فبين ما يستقطبان من المشاعر من حيث يمكن اعتبار أن هذا البغض (للطغيان) ان هو الا هذا الحب (للحرية) أو على الأقل هكذا يطيب تصور الأمور لضمير أو وعى مسيحى ، فضلا عن قس ، أما لابويسيه ، فما أملى مقاله بغضه للطغيان سواء كان هذا البغض بغضا صراحا أو حبا فى جوهره ، ولو كان ذلك دافعـــه لما كتب كتـابا باقيا بل لسب وأقذع • وانما أملاه ــ كمـا سنتبينه فيما بعـــد ــ أنه قد رأى الطغيان : أعنى هذه الرؤية العقلية التى تنفذ الى ما وراء جـــدار الأضداد الذى تحبسنا اللغة فى قفصه : الحرية والطغيان ، الأنا والآخر ، الخير والشر ، الرجل والمرأة ، الخ • لتمسك بالواقع • فاذا كانت هذه الرؤية هى ما يسميه المنطق تصورا جاز القول أن « العبودية المختــارة » ليست تعبيرا لفظيـا بل تصــور يكشف أو بالأدق يستبق الكشف عما بين المستعبد والمستعبد من ربــاط دفين وراء تناقضهما الظاهر •

وأيا كان الأمر ، سواء أدرك لامنيه مغزى النص الذى نشره أو لم يدركه ، فقد كانت نشرته هذه بدء صفحة جـديدة : توالت طبعات لابويسيه الى يومنا هذا ، بعضـــها لأعماله كاملة والبعض الآخر لأعماله السياسية وحدها واقتصر الكثير منهـا على المقال فى العبودية المختارة • وكثرت بمحاذاة ذلك الشروح والتفسيرات كما كثر الجدل بين الشراح والمفسرين • ولست أرى هنـا داعيا الى حصر هذا كله خاصة وأنى أذكر فى قائمـة المراجع أحدث نشرتين لهذا النص ســـوف يجـــد فيهما المستزيد كل ما يبتغى فى هذا

الصدد • وانما اكتفي بذكر بعض الآراء التي سوف يعيننا نقدها على تحديد المسار الصحيح حين نعرض لقراءته (١) •

لم تلبث مقدمة لامنيه أن أثارت على صفحات المجلة الاجتماعية عام ١٨٤٧ نقدا محكما سدده اليه والى لابويسيه معا بيير لورو وكان أيضا من الرجال الذين ينظرون الى مستقبل أحسن ولكن من منطلق الاشتراكية لا الدين • مؤدى هذا النقد هو أن مؤلف تهافت الواحد (وهو العنوان الذى رأينا أن أنصار الاصلاح الدينى قد أضافوه الى مقال لابويسيه للأسباب التى سبق بيانها) لو أنه أراد أن يكون تهافته هذا هو التهافت الحقيقى للواحد لوجب عليه « أن يخبرنا كيف كان يستطيع الناس الاستغناء عن الأسياد ، كيف كان يمكنهم أن يعيشوا فيما بينهم وأن يكونوا من أنفسهم مجتمعا دون أن يكون بعضهم سادة على البعض الآخر ، دون سيطرة ، دون أمر ، دون تمايز بين الأعلين والأسفلين • ولكن لما كان المؤلف يبدأ من هذا المبدأ ، أننا جميعا متساوون ، دون أن يبين بأى شكل من الأشكال ما هى السبيل الى اقتلاع جذر الطغيان فقد نجم عن ذلك أن استخدامه لهذا المبدأ ضد الموناركية انما هو فى صميمه مغالطة » • هذا النقد ربما جاز توجيهه الى لامنيه ولكنه لا يتناول مؤلف العبودية المختارة • ويحتاج بيان ذلك الى الاشارة الى أن الكلمة الفرنسية التى ترجمناها فى الفقرة المقتبسة للتو بلفظ « السيد » تشمل معانى متعددة يستغرق شرحها خمس صفحات كاملة من قاموس ليتريه ولكنها تنقسم بالاجمال الى قسمين :

١ ـ فهى من ناحية تعنى السيد بالمعنى الذى ضده الخادم أو التابع أو العبد ومن ثم تطلق على كل من تمتع بسلطة تخول له

---

(١) على سبيل المثال لا ارى داعيا للوقوف عند الرأى القائل بأن لابويسيه كتب مقاله ردا على ماكيافللى « نصير الطغيان » وهو رأى أن دل على شيء فعلى الجهل المطبق بماكيافللى •

أن يأمر غيره ، سواء أكان مردها الملك فيقال سيد البيت أو الأرض أو العمل أو الدابة أى ربها وصاحبها ، أو العرف السياسي فيقال عن الحكام والرؤساء من كل نـوع وصنف أنهم ســادة قومهم ، أو العرف الديني كأن يقال عن المسيح أنه سيد الملوك ثم هي من ناحية أخرى تعني الأستاذ أو المعلم ومن ثمة كانت تطلق على كل من كان ثقة أو حجة في مجاله ، يستمع اليه دون أن يكون ســماعة عبودية بل طاعة مختارة . ولا أظن أن لابويسيه كان يرى تعارضا ما بين الحرية التي كان يؤمن بها وبين « الســيادة » بهذا المعنى الثاني ولا هو كان ينكر أن كل مجتمع يقتضى أن يتولى حكمه بعض أفراده كما ان لكل سفينة ربانا . ولكن ســؤال لابويسيه هو : لم كانت مهنة الحكم هذه تجلب معها في كل زمان ومكان الزلاق السيادة الى المعنى الأول ؟ لقد اختتم بيير لورو مقاله مؤكدا ايمانه بأن « التهافت الحقيقي للواحد » آت عن قريب وأظنه كان يلمح الى الاشتراكية . أتراه يقول اليوم أن سؤال لابويسيه قد وجد جوابه أم هو زاد حدة والحاحا ؟ .

لقد غلب على شراح القرن التاســع عشر أن يقرءوا في مقال لابويسيه مشروعهم هم الســياسى والاجتماعى فلم يعـد للرجل وجود الا في المرآة التي ظنوا أنهم يرون فيها ما وراءهم . ولقد يكون ذلك أمرا محتوما ، ربما لم يكن مفر من أن يعرب شرح الشارح المتأخر عن مشروع الحقبة التي يعيش فيهـا أكثر مما يعـرب عن فكر المؤلف ، ولكن ذلك لا يمنع الالتزام بالنص والاحتكام اليه . وأقوى مثال على ذلك هو أوجست فيرومورل الذى ذهب في مقدمته لكتيب لابويسيه عام ١٨٦٣ الى أن جعل من مؤلفنا أول المبشرين بفكرة الأعلوية الشعبية (الشعب مصـدر السلطات) . لينس القارىء ما ذكرناه عن ظهور هذه الفكرة ابان العصـور الوسطى وليقرأ مقال لابويسيه : لسوف يرى أن المؤلف أبعـد ما يكون عن المطالبة بحقوق السيادة سواء للشعب أو لغيره من الطبقات وأنه حين

يتحدث عن الشعب وهو يفكر في سكان المدن لا تخرج كلمة الشعب عنده عن أن تكون مرادفا للغوغاء • ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أنه قد نسى من كانوا يسمون بالحفاة أى الفلاحين الذين رأينا أى صدى تركته ثورتهم فى نفسه : لا المطالبة بسيادتهم بل سؤال تمكن صياغته مرة أخرى على النحو الآتى : اذا كانت السياسة هى اقتسام القوة كما قال البعض (وأظنه تيت ـ ليف) فكيف تأتى أن ينزل « الحفاة » وهم الأغلبية الساحقة عن أخذ حظهم منها ؟ لقد يقول القارىء : « لقد عملوا على أخذها ، دليل ذلك ثورتهم ! » ولكنا بينا أن ثورتهم هذه كانت ثورة محافظة وأن مثاليتهم كانت حنينا الى الماضى واسترجاعا له لا نظرا الى مستقبل يصبحون فيه قوة لها مشاركتها فى القرارات التى تمس حياتهم ، كالسلم والحرب أو جمع الأموال وصرفها • وهنا أسمع القارىء يقول : « نعم ، ولكن سؤال لابويسيه يفقد وجاهته ويبطل أشكاله اذ نظرنا الى الطبقات البورجوازية والعمالية التى نعرف نجاح ثوراتها • « والرد على ذلك يقتضى ملاحظتين :

الأولى : هى أنه ما من ثورة تقوم الا حين تعجز الدولة عن القيام بأعبائها فى الداخل والخارج وأن كل ثورة تؤدى لا الى تخفيف نفوذ الدولة بل الى دعمه وتقويته ، ولا تخرج الثورتان الفرنسية والروسية عن هذه القاعدة •

الثانية : هى أنه ما من دولة يمكن ردها الى كونها مجرد أداة فى يد طبقة من الطبقات ، فالدولة بما هى الأعلوية المدعمة بقوة الردع لا تقوم لها قائمة بدون التواريخ والأعياد والأنصبة التذكارية والأبنية الأثرية وبدون الطقوس (كأداة القسم أو افتتاح البرلمان) والرموز (كالعلم) التى يرى فيها الجميع أنفسهم كائنا واحدا يسعدون به حتى أنهم يموتون طواعية من أجله • هذا النزوع الانسانى الجارف أو هذا الحلم بوحدة

لا تعريف لها بالمنافع هو الذى أدى اغفاله الى توقع أن يؤدى وعلى العمال باستغلال الرأسماليين لهم الى تضامنهم الدولى . ونعلم اليوم أين نحن من هذا التوقع ، هذا من جهـــة ، ثم انا نعلم من جهة أخرى أن ما يسمى باستقلال طبقة بالحكم لا يمنع استقلال الحكم عنها بل تزيد وطأة الدولة بمقـدار تفردها بالقوة . وخلاصة القول هى اننـــا ننتهى فى هذه الفقرة الى ما ألمحنا اليه فى ختام الفقرة السابقة ، ألا وهو أن عصرنا كان بمثابة تجـربة معملية أدت الى التفـرقة بين هاتين المشكلتين : مشكلة الاســتغلال من جانب ومشكلة السيادة من الجانب الآخر . ولما كانت هذه المشكلة الأخيرة هى التى أراد لابويسيه معالجتها فلا غرو أن راج الاهتمام به اليوم أكثر منه فى أى وقت مضى . لهذا نختتم هذا الجزء من مقدمتنا بذكر رأيين معاصرين فى العبودية المختارة .

يقول « آبنسور فى مقدمة الطبعة التى أشرف على اخراجهـا عام ١٩٧٦ أن العبودية المختارة لغز ، لغز يكمن (كما رأيناه بصدد ثورة الفلاحين) فى أن طلب القوة يتولد فى ذات اللحظة التى تندلع فيها مناهضة القوة وان كل رأى يسجن لابويسيه فى صورة المنادى بالحرية أو بسيادة الشعب وكذلك كل محاولة تريد فك هذا اللغز بالدوافع النفسية أو بالشروح الوضعية انما هى محاولة لتصفية هذا اللغز الذى يستمسك به لابويسيه اعـــرابا عن رفضه . أى رفض ؟ هنا يأتى اجابة عن هذا السؤال رأى آبنســـور فى ثورة ١٥٤٨ الذى لا يفهم الا فى ضوء رأيه فى الدولة الحديثة : « لقد خلقت الامبراطوريات القديمة من الصين الى جبال الانديز ماكينات دولتية (١) أزيد قدرة على السحق بمـــا لا يقارن من تلك التى

---

(١) استخدمه صفة مشتقة من الدولة تمييزا من « دولية » .

أفرزتها المونارکيات الأوروبية فى القرن ١٦ • ولكن هذا الجهاز البروقراطى الذى ينبنى على رأس المجتمع يترك عند القاعدة عالما يظل بمنأى عن الدولة لا بل عالما يسبق بكثير من سماته ظهور الدولة نفسها • أما مطمح الدولة الحديثة كما تتبين قواعدها الثابتة فى أوروبا القرن ١٦ فشىء مختلف كل الاختلاف • انها تطمح الى مراقبة المجتمع من أعلى وعن بعد كيما تستخرج منه الفائض الاقتصادى بل الى النفاذ الحرفى الى خلياته والدخول فى أدق مفاصله والسيطرة على أبطن تروسه • الضبط ، التقنين ، مراجعة التعريف ، التغيير ، التحديث ••• ومنه كسر تلك القاعدة أو تلك النواة الباقية منذ أقدم العهود والتى لا تزال تحوى أنماطا من الفكر عريقة فى القدم ، وأعمالا تتكرر منذ آلاف السنين وتحوى بالأخص حكومة مقصورة على المشتركية الصغيرة فى مجهودها المستمر من أجل أن تدرأ بفضل استمساكها بالعرف دخول الفرق فيها بين الحاكمين والمحكومين » • فاذا انتقلنا الآن الى ثورة الفلاحين

رأينا أن ما كان هولاء يخشونه وراء ضريبة الملح ووراء الضغط الادارى انما كان هذه البدعة : هذه الدولة الجديدة التى أحسوا أنها لن تتوقف عن انتاج الجديد الى غير حد • صحيح ان عدم مساسهم بالحكم الملكى يدل على حدود انتفاضتهم ولكنه يشير أيضا الى هدفها الحق • فسخطهم انما كان يتجه الى هذه الصورة الجديدة من صور السيادة ، الى هذا القهر الخفى ، القريب ،

المحدد وليس الى شخص الملك بما له من جاه سحرى لكنه غير ملموس الأثر فى حياتهم اليومية • انهم كانوا يعلمون ، هم ، أن الملك ليس الدولة • وهذه الدولة هى ما كانت ثورتهم تعرب عن رفضه • كانوا يعلمون ••• لكن دون أن يكونوا بمحل يتيح لهم اخراج هذا العلم الى الكلم • وهذا العلم غير المعلوم هو بالتحديد ما وجد العبارة عنه لدى لابويسيه • لقد اختار لابويسية الرفض ، اختار هذا الرفض الذى يملى علينا أن نتمعن فكرة الحرية فى وجه

القوة أو السلطان · ـ لا أظن أن هذا الرأى يحتاج الى تعليق طويل يكفى أن نقول انه اذا كان التسرع فى حل الألغاز أمرا فى متناول « أصغر أوديب يفد على الطريق » كما يقول آبنسور فليس معنى ذلك أن الابقاء عليها بطولة بالضرورة · ثم انه اذا كان تفسير الحاضر بالماضى خطأ من حيث ينكر الجديد فتفسيره بعلم المستقبل (ولو وصفناه بالعلم اللا معلوم) أشبه بوضع الأرنب فى القبعة لاخراجه منها بعد ذلك · ثم ما معنى هذا « الرفض الكبير » فى مواجهة القوة اذا لم يمل علينا أن نقول شيئا مع لابويسيه عن علاقتنا بهذه القوة ؟

أما الرأى الآخر ، وهو لأستاذة جامعية قامت أيضا بنشر المقال عام ١٩٨٣ : سيمون جويار ـ فابر ، فيميل الى وضع لابويسيه على الطريق المؤدى الى روسو وكانط أى الى تخليص نظرية الدولة من سندها اللاهوتية · فهى ترى تحت عنوان الحدس العقدى أنه لما كان الطاغية لا تقوم له قائمة بحسب لابويسيه الا بانصياع الشعب له فان « حرية الشعب ينبغى البحث عنها فى الميثاق الضمنى الذى يربطه بالأمير » · أما كيف تخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة فهو ما تشرحه على النحو الآتى : « ما دام الحائز على القوة محتاجا الى تولية الشعب وتأييده فالحرية تظهر بما هى مبدأ السلطة السياسية ، هذا من جهة ، ثم من الجهة الأخرى ، وعلى سبيل المقابلة فانه يكفى أن يرفض الشعب قبوله وتأييده للأمير الحانث أو اللا مستحق كيما يفقد هذا الأخير كل قوة فيتحقق الخلاص لرعاياه » · أى أنها تشرح استخراج النتيجة العقدية من مقدمة لابويسيه باعادة شرح النتيجة ! ثم هى تستخرج من هذه النتيجة نتيجة أخرى مؤداها أن لابويسيه لا يؤثر بالضرورة الحكم الجمهورى بل هى لا تشك فيما تقرؤه فى حياته من الولاء للنظام الملكى ، ولكنه كان فى طليعة من بينوا أن النظام الملكى ليس كله حقوقا بل تكليف من الشعب تترتب عليه واجبات · ولهذه ، فى

رأيها ، « فكرة جديدة قاطعة » • كان رجال القانون والفلاسفة فى العصر الوسيط لم يستفيضوا لحديث فى مناقشة الصيغة الرومانية المعروفة : « الملك فى حل من القوانين » ليكتفوها بهذه الاضافة : « ولكن يقيده العقل » ، وكأن فكرة السيادة أو الأعلوية الشعبية نفسها لا تعود الى هذا العصر • يبقى أن من الصحيح أن سلطة الشعب هذه ما كان يتصورها مفكرو القرون الوسطى الا على أنها من سلطة الله • لذا بعد أن نسبت الكاتبة الى لابويسيه فضل السبق الى فكر مهد الطريق لادخال حقوق الشعب فى حيز التشريع فانها تنسب اليه الآن فضل السبق الى ادراك التنافر بين فكر العصر الوسيط وبين مقتضيات الدولة الحديثة • ومعنى هذا الفضل الجديد أن لابويسيه ـ وان كانت الكاتبة لا تشك مطلقا فى صدق ايمانه بالله ـ قد رفع مع ذلك يد الله عن مجال السياسة ما دامت السلطة مؤسسة على العقد وما دام الناس بذلك صناعا لحريتهم • أما كيف يصنعون عبوديتهم فقضية نسيتها الكاتبة منذ أن جعلت منها المقدمة التى استخرجت منها « الحدس العقدى » • ـ وخلاصة الكلام هى أن الرأيين اللذين فرغنا من عرضهما يختلفان اختلافا يبلغ حد التناقض • فآبنسور يقرأ فى مقال العبودية المختارة رفض لابويسيه المطلق للدولة الحديثة بما هى ماكينة ساحقة لا تترك للجماعات الانسانية مهما بعدت عن المركز أقل حرية أو استقلال فى تصريف أمورها بنفسها بينما تجعل سيمون جويار ـ فابر من لابويسيه أول من صاغوا نظرية الدولة الحديثة صياغة تحفظ للانسان كرامته • يبقى أنه اذا كان الأول قد أمسك بسؤال لابويسيه تمسكا فرغه من كل محتوى لترفعه عن كل جواب فان الثانية قد ألقت عن كاهلها عبء السؤال نفسه •



٤ ـ اشارات في قراءة المقال في العبودية المختارة

اختتم هذه المقدمة ببعض التنبيهات التى لابد منها لفهم سؤال لابويسيه فهما صحيحا ومتابعة أسلوبه في معالجته .

يبدأ المقال دون تمهيد بذكر بيتين من الاليـــاذة . ويعــلم القارىء ما مدار هذه الملحمة : عصبة من الملوك والأمراء لم يقفوا عند حدود العدل في طلب القصــاص بل أبوا ألا أن يدمروا الجانى ومدينته وشعبه تدميرا شحنوا له أكثر من ألف سفينة تحمل عشرات الآلاف من الجنود الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الحرب التى صارت رمزا للحرب لا بما هي عدوان فحسب بل عدوان بلا غرض سوى الجاه (١) . فلم انصياعهم ؟ تضليل الطبقات الحاكمة ؟ ولكن هذا التضليل ليس خدعة فكرية يتمايز فيها الخادع والمخدوع بل لغة يتحد فيها المضللون والمضللون ان لم أقل المضللون بالمضللين : فليس أشيع منذ أن خلقت الدول من هتــاف الشعوب بافتــداء الزعماء . هذه القرابين زد أعدادها ما شئت ، فالشعوب تزف اليوم الى حتفها لا بالمئات وبالآلاف بل في طرود بمئات الآلاف ، ومع هذا ما يغير ذلك من الأمر شيئا . لا بل أنهم لو ظهر بينهم من يفضح مضلليهم (ولنأخذ رجلا كبرتراند رسل ابان الحرب العالمية الأولى) سارعوا الى المطالبة باسكاته . فالاستهلال بالالياذة رمز الى ما ترمز اليه حرب طروادة .

(١) كتبت هذه السطور قبل حرب آخرى لا نحتاج الى ذكرها .

يبقى أن ننظر الى البيتين المساقين : كثرة الأمراء سوء ، كفى أمير واحد ، ملك واحد • هذان بيتان يجريهما أمير الشعراء (هومير) على لسان أمير (أوليس) ، كما يقول كلود لوفور ، والمناسبة هى أن الجنود اذ شكوا فى قدرة أمرائهم على تحقيق مرادهم وخشوا ان ينجح محاربو طروادة فى تدمير سفنهم التى لا رجوع لهم بغيرها الى ديارهم ، أخذوا فى التمرد والاعلان عن رغبتهم فى انهاء الحرب • ولكن أوليس وهو رجل المواقف تصدى لهم وألزمهم محلهم مذكرا اياهم ــ وهم من هم ــ أن أهل الرأى غيرهم : كفى أمير واحد • كلمة كاذبة فى رأى لابويسيه الذى يتكلم كأنه يجيب أوليس باسم الجنود : لأنه اذا كان الخضوع لواحد بؤسا « متى تسمى باسم السيد » ، تعدد البؤس بمقدار تعدد الأسياد ؛ ومنه كان يصدق أوليس لو أنه وقف عند قوله كثرة الأمراء سوء دون مزيد •

متى تسمى باسم الواحد : ان لابويسيه أبعد المفكرين عن اخراج الناس بالتخيل من المجتمع والدولة الى الطبيعة ليستنتج بعدئذ ضرورة الاجتماع والدولة • انه يبدأ من حيث يبدأ الناس منذ يولدون ، من اللغة التى ترتسم علاقاتهم فى حدودها : السيد والعبد ، المالك والمستأجر ، الراهن والمرتهن ، الزوج والزوجة ، الخ • ولكن اذا كانت كل علاقة تدخل فى مجال التشريع تتضمن حقوقا وواجبات أو حقوقا بواجبات وواجبات بحقوق (كما نقول عين بعين وسن بسن) وكانت من ثم تتضمن الأخروية أو تعدد الأطراف بحيث يصير الحديث عن حقوق محصورة فى طرف واحد لا تترتب عليها واجبات نوعا من المغالطة (وهذا هو فعلا رأى بعض رجال القانون فى الحديث عن « حقوق الانسان ») فان السيادة وان لم يكن لها وجود الا فى عالم مصاغ فى العرف أو فى التشريع تتميز بكونها ليست حقا بعينه يترتب عليه واجب منصوص عليهما فى القانون ، بل هى حق اصدار القانون أو حق

النص على ما هو حق وواجب بالتحديد · ومن ثمة فهى ليست حقا بل قوة · ثم هى ليست بالعلاقة بل خروج عن العلاقة وخروج عن الأخروية والمساواة ما دامت هى التى تقـــرر ما الحق وما الواجب سواء فيما يتصل « بالآخر » أو بها نفسها · فالقانون الذى تصدره قد يتضمن دخولها طرفا فى علاقة مع الآخـرين (كوجوب تعويض الأفراد فى حالات معينة) ولكنها من حيث تصدر القانون آخر مطلق لا آخر له · هذا الخروج عن العلاقة وعن الأخروية وعن المســاواة هو ما سنسميه المباينة ، وهذه المباينـــة هى ما يتم فى التسمى باسم السيد · فأما أن يتسمى بهذا الاسم فرد بعينه (ولا أحتاج الى ذكر الأمثلة) أو طبقة من الأفراد (وربما كان لابويسيه ـ بعدا الالياذة ـ يفكر فى ماكيافللى الذى كان يطلق اسم « الأمير » سواء على أمير بعينه أو على أعضاء الطبقة الحاكمة عامة) فهذا مالا ينجم عنه الا اختلاف فى الدرجة لا فى النوع ، فى هذا المعـــرض يبدأ لابويسيه فى تحديد موضوع مقاله ·

هذا الموضوع ليس المفاضـلة بين أنواع الحكم على الأسلوب الموروث عن أرسطو ، كأن نرى اذا كانت الأشـــكال الســياسية الأخرى للجماعة تفضل « الموناركية » أو حكم الواحد ، ثم يستطرد فيقول انه لو أراد معالجة هذا الموضوع لود أولا أن يعرف هل لهذا النوع من الحــكم مكانة ما اذا أن من الصعب الاعتقاد ببقــاء شىء يخص الجماعة حيث ينفرد واحد بكل شىء ·

ولقد رأينا كيف أن البعض ابتداء من معاصرى لابويسيه من مناصرى حركة الاصلاح الدينى لم يتردد فى أن يقرأ هذا الاستطراد هجوما صريحا على الملكية والطغيان حتى أنهم أضـــافوا الى المقال عنوانا من اختراعهم هو « تهافت الواحد » ، ولكنا قد تبينا توا أن الوحدانية المعنية فى هذا النص ليست وحدانيـة الفرد بل وحدة الاسم الذى يتسمى به أو بالأحرى وحدة المحل ، محـــل المباين ،

الذى يتحدد بهذا الاسم ، ولقد يحمله ثلاثون (كطغاة أثينا الذين سيشير اليهم لابويسيه) أو عدد يزيد أو ينقص • هذه الملاحظة ربما أعانت على تخمين رأى لابويسيه لو أنه طرق هذا الموضوع الذى تركه لأنه «يستحق أن يفرد له مقال خاص » : لا أظنه الا مؤيدا لما يذهب اليه المؤرخ الرومانى تيت ـ ليف اذ يقول في ايجاز انه لا وجود لحرية حقيقية بدون تناوب الحكم • وأيا كان الأمر فان التعريف بما ليس موضوعنا لا يغنى عن التعريف بهذا الموضوع •

وعليه يشرح لابويسيه هدفه قائلا أنه انما يبتغى أن يفهم كيف أمكن أن نرى الملايين من البشر يحتملون أحيانا طاغيا واحدا دون أن تحملهم على ذلك قوة أكبر بل هم فيما يبدو قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الاسم الذى انفرد به البعض • فلو أن السيادة كانت بقوة السيف ولو أن الخضوع كان قهرا كخضوع أثينا للطغاة الثلاثين لما دعا الأمر الى العجب • ولكننا نرانا هنا بازاء ظاهرة غريبة ، ربما كان أحسن ما يعيننا على تفهمها هو أن نرى ما ضدها ـ وهو ما ينتقل اليه لابويسيه فى الفقرة التالية •

هذا الضد هو الصداقة • ان الصداقة تدعونا الى عرفان الجميل من حيث تلقيناه والاستغناء أحيانا عن بعض ما فيه راحتنا لنزيد به شرفا وامتيازا من نحب ومن استحق هذا الحب • « ولكن لو أن بلدا رأى سكانه كبيرا منهم يبدى بالبرهان فطنة كبيرة فى نصحهم ••• فانتقلوا من ذلك الى طاعته واسلامه قيادهم له الى حد اعطائه ميزات دونهم فما أدرى أهذه حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدى الخير اليهم الى حيث يصبح الشر فى مقدوره • ان التخلى عن خشية الشر ممن لم نلق منه الا الخير لحكمة لو كان محالا أن يخالط طيبته نقص » • ومنه نرى أن السؤال تمكن صياغته على هذا النحو : لم كان الناس لا يقفون فى مجال الحياة السياسية عند تكليف الحكام ومحاسبتهم وجزائهم بل

يذهبون الى اخراجهم عن حدود الأخروية والمساواة والى تخيل المباينة فيهم ؟ وربما كنا تبينا شيئا من الجواب عن هذا السؤال : انهم لا يكتفون دائما بما يعرض لهم من الطيبة أو الخير بل يذهبون الى حد الرغبة فى طيبة « لا يخالطها نقص » ، يستحيل العثور عليهـا الا فى اعتقادهم . أنقول ان هذه التعلية انما هى جزاء ما يتحلون به من الصفات ؟

ولكن لابويسيه لاتفوته ملاحظة أن الناس قد يحتملون أحيانا السلب والنهب وضروب القسوة لا من عسكر أجنبى ينبغى عليهم الذود عن حياضهم ضده ، بل من سيد « لا هو بهرقل ولا شمسون بل خنث ، هو فى معظم الأحيان أجبن من فى الأمة وأكثرهم تأنثا » . وهنا أيضا ذهب القراء الى التساؤل : الى أى ملك أو أمير يلمح لابويسيه بهذا الوصف ؟ ولكنا نلحظ أن نماذج الحكام لا يحدها الحصر ، فهناك المستأسد المتزلف ، والواعد والمتوعد ، والمندفع والمتردد ، ومن ينشر الخوف ومن ينشر الضحك ... الخ ، أى هم تتنوع طباعهم بتنوع طبائع الانسان ولقد يمر الواحد منهم بهذه الأطوار جميعا ، فان اشتركوا فى شيء ففى المكر الذى يكاد يحل عندهم محل ما يسميه برجسون « الانتباه الى الحياة » . فاذا كان لابويسيه قد اختار هذا النموذج بالذات ، نموذج الخنث ، فليس لأنه يفكر فى « طاغية » بعينه كأنما كان موضوع المقال وصف « طبائع الاستبداد » ، وانما لأننا وقد بدأنا بالالياذة فرب قائل يقول : ان جنود المدن والدول اليونانية انما خضعوا لامرائهم وملوكهم لأنهم كانوا أنصاف آلهة ، فأى رد على مثل هذه الحجة سوى التنبيه الى أننا نرى الظاهرة نفسها مع أنصاف رجال ؟ وخلاصة الكلام هى أن المباينة لا تلدها الصفات ، فما من انسان تحلى بصفة تخرجه من أن يكون بشرا .

ان هذه الظاهرة قد تخفى على أصحابها (ولنقل جنود

اليونان) طالما تقمصوا رغبة أمرائهـم (ولنقل تدمير طروادة) ٠ ولكنها تسفر عن وجهها وتكبر أبعادها الى حد يثير العجب في حالة الطغيان المستند صراحة الى القوة سواء كان الطاغية فاتحا غازيا أو طاغية بالوراثة أو رجلا طلب الشعب توليته مقاليد الحكم (وهو المعنى الأبرز للكلمة اليونانية المترجمـة بالطاغية) ٠ ولقد يـرى القارىء على العكس أن سؤال لابويسيه لا يعود له محـل ما دام الخضوع للطغيان خضوعا للقوة لا اختيارا ٠ ولكن مؤلفنا يسأل : أى قوة والطاغية واحد بينما محتملوه « على كره بالملايين ؟ أنقول أنه الجبن ؟ « لقد يخشى اثنان واحدا ولقد يخشاه عشرة ٠٠٠ فأما ألف مدينة ان هي لم تنهض دفاعا عن نفسها فى وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب الى هذا المدى كمـا أن الشجاعة لا تعنى أن يتسلق امرؤ وحده حصنا أو أن يهاجم جيشا أو يغزو مملكة ٠ فأى مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذى لا يستحق حتى إسم الجبن ولا يجد كلمة تكفى قبحه والذى تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته ؟ » ٠

يذكرنا لابويسيه من أجل تبين هذا « المسخ » بأمثلة الشجاعة التى تملأ قلوب الشعوب التى تهب دفاعا عنه ٠ أنقول أن الخضوع للطغيان لا يعنى انعدام ارادة الحرية بل الاحجام عن دفع ثمنها ؟ يرد لابويسيه على ذلك فى فقرة تبـدو تصويرا لمنهج « العصـيان المدنى » من حيث هو كل ما يتطلبه إسقاط الطاغية : « للبلد اذا أراد ألا يتحمل مشقة السعى وراء ما فيه منفعته ، كل ما يقتضيه الأمر هو الامساك عما يجلب ضرره » ٠ نذهب اذن الى القول بأن الاستكانة لاستعباد الطاغية تعني انعـدام الرغبـة فى الحريه ؟ لو صحت النتيجة لكانت شـيئا عجيبا : أتكون الحرية التى هى الخير الأعظم والأطيب ، هى أيضا الشىء الأوحد الذى تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه ؟

هنا ، بعد أن بلغ التناقض أوجـه ، يسترسل لابويسيه في صفحة خطابية موجهة الى الشعوب كأنه يطلعها على مرآة تتيح لها ـ اذا كان لمثل هذه المرآة وجود ـ أن ترى في آن معا واقعها المتجسد وصورته المعكوسة على السواء · فأما واقعها فسلب لا يترك لهـا ما تفخر بملكه ، « حتى أنفسكم ليست لكم » · وأما من ناحيـة المرآة فهـم أيضـا مسلوبون بصـورة لا يعلمون أنهم هم من « صنعوا كبرها » (١) ، صورة العدو الذى « تمشـون الى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهـة الموت بأشخاصكم فى سبيل مجده » ·

ويبدو أن لابويسيه كان يوجه هذا النداء الى الشعوب وهو يعلم أن ليس أصعب من رد المرء عن تجاهله لمدى مشاركتـه في صنع ما يشكو منه ، لأنه يعود فيقول : « بيـد أن الأطباء محقون بلا شك اذ ينهون عن لمس الجروح التى لا برء منها ·· لنحاول اذن أن نتبين لو أمكن ذلك كيف استطالت الى هذا المدى البعيد تلك الارادة العنيدة ، ارادة العبودية ، حتى صارت محبة الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمت الى الطبيعة بسبب » · ـ فأما وقد اتضح السؤال على هذا النحو فيبقى أن نقول كلمـة عن مسـار لابويسيه فى معالجته ·

يبدأ المؤلف بالنظر لا أقول الى الانسـان بل الى النـاس كما سوتهم الطبيعة التى هى « وزيرة الخالق وآمرة الخلق » · وتبدأ

---

(١) ومنه كانت هذه الصورة هى التى تطيب لهم رؤية أنفسهم فيها من حيث لا يعلمون · هذه فى رأيى اشارة الى نظرية « الانسلاب » بمعنى تعريف الأنا لا بوعيه بل بما يجهله من توحده أو تعينه بالآخر الذى يبدو مغايرا له ـ وهى النظرية التى نعلم ما ستلقاه من التعميق والتعميم ابتداء من هيجل وماركس الى يومنا هذا ، وان يكن حدس الشاعر قد سبق اليها : يأجو : « أنا عطيل · اذ الاحقه الاحق نفسى » ·

بذلك صفحة يقرأ القارىء فيها أول ضربات المعول فى صرح الفكر السياسى الوسيط . انتهت استعارة الجسد من حيث كانت تحكم هذا الفكر من الألف الى الياء وانتهى ما تستتبعه من الأخيلة : الرأس الموجه (ومن يوجهه ؟) ، الراعى (كأن الناس غنم تحرسها الكلاب) ، الأب (وأرجو أن يقرأ القارىء جون لوك فى تفنيد هذا الادعاء الأبله الذى يدعو انطلاؤه على العقول الى الحسرة) الى آخر هذه العبارات المنبثة فى الألسنة ، يتمثل فيها هذا القطاع من اللغة المؤدى لا الى تعارف الناس بتعرف أخوتهم بل الى الحيلولة دون هذا التعارف . وبالاختصار انتهى التصور الوسيط للجماعة بما هى هرم قاعدته فى الأرض ورأسه بالضرورة فى السماء .

فاذا كانت نقطة البدء هى الطبيعة (ولا أطيل الحديث فى مغزى اختيار هذا المنطلق) فالمبدأ هو « المساواة » وهو ما يعنى عند لابويسيه أخروية التعاون لا أخروية الغلبة ؛ والمبدأ هو « تلك الهبة الكبرى » هبة الصوت والكلم « التى لا سبيل بدونها الى أن يتعرف كل نفسه « فى مرآة الآخرين » . وكل هذا يصب فى جملة واحدة ، هى أن الطبيعة « قد بينت فى كل ما تصنع أنها لا تهدف الى توحيدنا جميعا بقدر ما تهدف الى أن نكون جميعا آحادا » . وأنها لجملة يتبخر وقعها اذا لم ينتبه القارىء الى ما تتضمنه من التفرقة التى لم يتم صوغها صوغا صريحا الا فى القرن التاسع عشر على يد فريجه بين معنيى « الواحد » : فهناك من جهة واحد العدد الذى يعنى فى الحقيقة الكثرة لأنه مجعول للتكرار فأنت لا ترسم الخط الدال عليه الا بجانب خط آخر موجود بالفعل أو بالامكان ولولا تكراريته هذه لما كان العدد ، وهناك من جهة أخرى الواحد بمعنى الكل المكتمل الذى « لا يخالطه نقص » ؛ هذا الواحد الذى لا وجود له الا فى اللغة هو الذى يملى علينا خلق المسوخ الشمولية . نقول « الكون » كأن الكون دائرة مغلقة ، ونقول « الجماعة » كأن الجماعة ليست كثرة من الآحاد

والمصالح والقوى ، ونقول « الانسان » كأن الانسان قالب من الصخر تنحت منه الأجناس والشعوب (١) وليس الناس بما هم أفراد أو آحاد قد تأتلف وقد تتصارع ان جموعا وان فرادى • ولست أدعى أن لابويسنيه قد تبين صراحة في هذه المسوخ الشمولية الأوهام التي تغذي نرجسية الشعوب من حيث يصبو كل واحد الى الواحد ؛ فمثل هذا الادعاء ينسب الى المؤلف الحديث بلغة مقطوعة الصلة بلغة العصر ، وهو محال • ولكنه على أية حال قد جعل من الحرية مرادفا للمساواة بما هي نفي للفروق بين الآحاد فضلا عن الاسترقاق وأنه اذا كان قد جعل منها مبدأ أو حقا طبيعيا فبقدر ما جعل الطبيعة نفسها تصنع صنعها كأنها تسترشد اللغة •• والا ففي أى ركن من أركان الطبيعة الخام يجد الانسان العدد والآحاد ؟

لذا كنا نعجب بعض الشيء اذ نراه يستشهد في الفقرة التالية بمسلك الحيوان (الفيل والبقر والسمك ، الخ) من أجل التدليل على أننا مفطورون على محبة الحرية والذود عنها • ولكنا نلاحظ أولا أنه انما يسوق هذه الحجة بعد تقييدها بكونها حجة يسوقها لمن لا يفقه حتى يفقه • ونلاحظ ثانيا أنه لا يلجأ اليها الا تمهيدا للرأى الذى يبديه بعد ذلك في أول أسباب العبودية ، ألا وهو العادة •

يبدأ لابويسيه شرحه لهذا الرأى الأخير بأن يفرق بين ثلاثة أصناف من الطغاة : فهم اما يختارهم الشعب (وهو المعنى الذى أشرنا الى أنه أقرب المعاني الى المراد بكلمة الطاغية في اليونانية) واما يأتون بقوة السلاح واما بالوراثة • ثم بعد أن يصف مسلك هذه الأصناف الثلاثة في صفحات أترك للقارىء تذوقها ينتهي الى أنه ليس

---

(١) وهو المعنى الذى يستشفه كل ذى أذنين وراء العبارة التي انتشرت اليوم على أقلام البلهاء : عبارة « الانسان المصرى » (في حين نكتفي بان نقول الأمريكى أو الفرنسي) ، كأننا صرنا نخشى الخروج من حظيرة الانسانية أو كأن الانسانية صارت كل ما نملك الفخر به ! •

له اختيار مادام أيا كان الصنف الذى تتوقاه فالصنفان الآخـــران أسخم • ولكن الذى يعنينا هنا هو ما تنطوى عليه هذه « التفرقة » (أو بالأحرى المعادلة) من الجرأة التى يصعب علينا الآن تصورها : فهو لا يتردد فى المحاذاة بين الملكية الوراثيـــة التى كان يرى فيها معاصروه جميعا نموذج الحكم الشرعى وبين الصنفين الآخــــرين • أضف أن المحاذاة بين هذا الحكم الوراثى الذى لا يشك المحكومون فى مشروعيته وبين الحكم الذى مصدره اختيارهم ثم الصنف الثالث المؤسس على قوة السلاح دليل كاف على أن المشكلة لا تتعلق بالطغيان بمعنى الاستبداد المبنى على الارهاب بل بالحكم عامة من حيث تخلع مناصبه على شاغليها جاها غامضا يفسر ولو الى حد دعـوة الشعوب للطغاة (وهو ما يقع أحيانا) ويفسر احتمالها اياهم ان جـــاءوا غير مدعوين •

ولكن أليس اللجوء الى العادة من أجل تفسير العبودية المختارة تناقضا واضحا ؟ لقد بدأنا باثبـــات هذه الظاهرة : هنـــاك عبودية مختارة • ثم قلنا ان هذه العبودية ليست طبيعة فى الناس ، بل هم مفطورون على محبة الحرية • ومنه يخرج أن العبودية لا تأتى أبـدا اختيارا وانما عن طريق القهر أو الخداع ، وكل ما نستطيع اضافته هو أن الاستعباد متى دخـل عن هذا الطريق وخضـع له جيل من الأجيال استسلمت له الأجيـال التاليـة استسلامها لوضع طبيعى يصبح عندها عادة أو طبيعة ثانيــة لا ترى فيها غرابة ما دامت قد ولدت فى ظله ولم تخبر وضعا غيره • ولكن هذه الاضافة لا ترفع التناقض الذى وقعنا فيه اذ أجبنا عن سؤالنا اجابة تتضمن نفى موضوعه من حيث تجعل من العادة ، باعتبـــارها طبيعة ثانيـــة ، الطبيعة الأقوى أو الغالبة •

الرد على هذا التناقض هو :

أولا : إذا كان الانسان بحكم طبيعته لا تعريف له فى رأى لابويسيه ، الا بكونه رغبة فى الحرية ، فان هذه الرغبة لا يمكن أن تضيع

ضياعا تاما « ما دام بالانسان أثر من الانسان » . وعليه فالعادة مهما تأصلت لا يستتر وراءها جهل مطلق بالحرية بل نسيان وتجاهل لا نعجب اذا كان الطغاة يحرصون على تغذيتهما بتغذية الجهل وبمقاومة الثقافة والتنوير وان لم يفلحوا فى الحيلولة دون أن يظهر ان آجلا وان عاجلا أناس لم تندثر فيهم ذكرى الحرية كل الاندثار وسلحوا عقولهم بالتثقف « لأن الزمن مهما طال لا يمكن أن يجعل من الغبن حقا » .

ثانيا : صحيح أن لابويسيه يتحدث عن دخول الاستعباد اما بالقوة أو بالخداع . ولكن هذا اللحن يصحبه لحن ثان لا يلبث أن يظهر لنا في هذه المقدمة ، ألا وهو أن خداع الشعوب أنفسها لا يقل عن خداع الحكام ، ينطق بذلك اسراعها الى قبول خداعهم اسراع السمك الى الطعم .

ينتقل اذن لابويسيه الى وصف مناهج الحكام فى التغرير بالشعوب في صفحات استقى مادتها من التاريخ القديم والتاريخ الروماني بنوع خاص ولكنها لا تترك قارئا أيا كان زمانه ومكانه دون أن تذكره بمادة مماثلة مستقاة مما يدور في عصره سواء في بلده أو في غيره من البلاد وان تفاوتت الدرجات . ثم بعد الانتهاء من وصف تلك المناهج « الوثنية » في التغرير ، ان جاز هذا التعبير (الألعاب والولائم والأعياد والمواكب ، الخ) ينتقل الى معجزات الشفاء التي كانت تنسب الى الأباطرة والملوك والتي يعلم القارىء كيف حار أمامها المؤرخون والأنثروبولوجيون حتى استنجد بعضهم بغية تفسيرها « بالعقلية البدائية » وكان أولى بهم أن يستمعوا الى قول لابويسيه ان الشعوب هي التي تخلق بنفسها الأكاذيب حتى تعود فتصدقها ــ وهو ما يعنى فى لغتنا المودرن أنه ما من ايحاء ينتج الا اذا طابق ايحاءك الى نفسك . وبماذا يوحي الناس الى أنفسهم ؟ بماذا يحلمون ؟ ان لم يكن بموضوع تتجسد فيه قدرة

الحب (أو ما يريده من القدرة) على دفع كل شر (العمى ، العرج ، البرص ، حتى الموت) أو قدرة الكره على انزال كل شر ، يكفي ان يستمع المرء الى حديث الناس على أطبائهم وأدويتهم حتى يتبين أن هذا الحلم لن يختفي غدا ٠

ثم ماذا بعد الكرامات الا التجلي ٠ تجلي المباين ٠ المباين بما هو المتأله ٠ يصف لابويسيه كيف يظهر فرعون في سحابة من الموضوعات الغريبة (الأفاعي ومفاتيح الحياة والأسواط ، الخ) ترمز الى قوى الأرض والسماء من حيث تلتقي جميعا في شخصه بما هو وسيط بين العالمين ٠ ثم يصف تغيب ملوك آشور عن الظهور حتى يسأل الناس أهم بشر أم شيء يزيد وحتى يكمل خضوعهم لحاكم لم يروه عيانا فرأوه بعين الاعتقاد ٠ أنقول « عقلية بدائية » مثلما البعض منذ هنيهة ؟ في سطور جمع اعجازها قمة الأدب الى قمة السخرية يعرج لابويسيه الى من سماهم « طغاتنا » ومن يعني بهم الا ملوك فرنسا ، ملوكها الذين تكونت حول أشخاصهم لا الدولة وحدها بل الدولة والأمة معا ، فرنسا ذاتها ، حولهم وحول رموزهم : الضفادع والزنابق والقارورة المقدسة ، الخ ٠ هذه الضفادع من تلك الأفاعي ٠

ذلك أكره ألوان التغرير الى مؤلفنا : التغرير بالدين ٠ ولا أدري ماذا يكون تعليقه على هذا السؤال الذي يرد اليوم على أقلام معاصرينا : هل يصنع الانسان الدين أم يصنعه الدين ؟ ولكني لا أراه الا مؤيدا لكلمة ابن خلدون الحاسمة عن « خلق التأله الذي في طبائع البشر » ؛ فهو نفسه يقول ان الحكام لو استطاعوا « لاستعاروا نبذة من الألوهية » ٠ ولكن كيف ينطلي التأله بغير التأليه ؟ ان حديث لابويسيه عن تغرير الشعوب أنفسها يعود بنا الى ما أشرنا اليه من نزوع الآحاد الى الواحد الذين ينسلبون فيه عن أنفسهم بما هم آحاد ليرونها فيه بما هو كل ٠ لقد خلقنا أصدقاء

متساوين ، هذا على الأقل رأى لابويسيه ، ولكننا نصبو الى الخروج من هذه المساواة ، نصبو الى القوة ـ ولعل القارىء قد شعر من حديثنا عن الكرامات كيف يجنح بنـــا الحب الى هذا المنعطف .
صحيح أن رغبة الحرية والمساواة ـ من حيث يرى فيها لابويسيه تعريف الانسان ـ تدفع الناس الى الايمـــان بالله الذى يتساوون أمامه جميعا . ولكن هذه المساواة تظل محصورة فى الاعتقاد دون أن تمنع تفاوتهم فى الواقع ، لا بل هم ذهبوا فى بعض العصور منها العصر الوسيط الى اسناد تفاوتهم هذا الى ارادة الخالق نفســـه ، ولا أحد يدرى على التحديد الام نصيـــر حين تخـــلو السـماء من كل ما يلقى على الأرض ولو هذا الظل من المساواة المجردة . أيا كان الأمر فهذا الإسناد هو ما رأينا لابويسيه يتولى نفيه .

صحيح أن مؤلفنا لم ينطق باسم الانسلاب أو باســم التعين أو التوحد بالواحد ، ولكن ذلك ما يخـــرج من كلامه بما لا يقبل الشك اذ يمضى قائلا ان ما وصفه حتى الآن لا يتعدى المناهج التى يصطنعها الطغاة فى التغرير بالشعب الساذج واذ يتقدم الى الكشف عن « النقطة التى يكمن فيها سر السيادة » ، سر الطغيان . ذلك أن الطغاة لا يكتفون بالاستئثار بالطاعة بل هم يطلبون الاخلاص ، يطلبون ، بعبارة أخرى ، قلب طبيعة الانسان ذاتها بحيث تحـــل عنده رغبة العبودية محل الرغبة الأولى فى الحرية . وانهم ليظفروا لطلبهم . يظفرون به اذ يجدون خمسة أو ستة انبهروا بهم انبهار الفراشة بالنار المحرقة ، يريدون التشبه بهم وأن يكونوا طواغية على غرارهم . ثم هؤلاء الســتة يأتــون بستمائة مثلهم يذيلهم ستة آلف تابع « يوكلون اليهم مناصب الدولة ويعهـــدون اليهـم اما بحكم الأقاليم واما بالتصرف فى الأموال ، تاركين اياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقــاء الا فى ظلهم ولا بعدا عن طائلة القوانين وعقوباتها الا عن طريقهم . « ثم تتسع الشبكة فاذا بنـــا نرى « الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل ، مثل جوبيتر اذ يجعله

هومير يتفاخر بأنه لو شيد سلسلته لجذب إليـــه الآلهة جميعا » .
ومنه نرى كيف تخترق السيادة أو بالأحرى كيف يخترق الاستعباد المجتمع كله من أعلاه الى أسفله من حيث ينزع أفراده الى أن يكونوا هم أنفسهم طغاة مصغرين ، ولكنــا نرى أيضــا كيف « يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض ، يحرسه من كان أولى بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئا » . — أى نرى كيف تتحول السيـــادة المبنية فى نهاية الأمر على الرغبة المشتركة فى موضوع موهوم الى استغلال فعلى ، كيف ينقسم المجتمع قسمين : قســما ممن يشبههم لابويسيه باللصوص والقراصنة ، وقسما من أهل القــرى والاجراء وأصـــحاب الحرف الذين تحلوا للأوائل « معاملتهم معاملة أشر من معاملة السخرة والعبيد » .

يبقى أن الطاغية لا يلقى الحب أبدا ولا هو يعرف الحب لأنه وقد علا الجميع وعدم كل رفيق قد خـــرج بهذا عينة عن حـدود الصداقة التى هى « اسم طاهر وجوهر قدسى مقعـــده الحق هو المساواة » . وهنا يترك لابويسيه الطاغيــة لعزلتــه فلا يعــود الى الحديث عنه ليتخذ مكانه بين صفوف المستضعفين متحدثا بلسانهم عن الطغاة المصغرين . فاذا أخذنا كلمة « الانسلاب » بالمعنى الدقيق الذى أعطاه هجل وماركس لهذا المصطلح ، أى انسلاخ الذات عن نفسها لتنقلب موضوعا لا تتبين نفسها فيه ، فما وصف لابويسيه لهؤلاء الطغاة المصغرين الا وصفا للانســـلاب عينه ثم أرادوا القوة وأرادوا المتعة والاكتناز فاذا كلهم خشية لا متعة فيها ولا ملك ! ثم هم بعد ذلك لا يلقون الا ســـوء المصير فى الدنيا وفى الآخرة ، فانهم هم الذين تلعنهم الشعوب وتمرغ أسماءهم فى الوحل ... دون الطاغية ! .

انى أترك الآن المقال فى العبودية المختـــارة ليـد القارىء .
وأيا كان رأيه فلا شك فى أن هذا النص اذا كان يحظى اليوم بانتباه

منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية والاجتماع فلأن أحداث العصر الذى نعيش فيه منذ الحرب العالمية الثانيـــة لا تترك بدا من التفرقة بين السيادة والاستغلال ومن مواجهة هذا السؤال : هل استغلال الانسان للانسان هو أســاس الســيادة وما هذه الا نتيجته ، أم أن للسيادة جذورا أخرى ما كان الاستغلال ليتسبب بغيرها فى صورة الدولة ؟

أيعنى ذلك أن هذا الكتاب يخلو كل الخلو من قوة الاثــارة الثورية التى نسبها اليه معاصروه وجميع من تلاهم الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ؟ كل ما أستطيع قوله هو يقينى بأن اتين دى لابويسيه انما قال ما نعلمه جميعا فى قرارة أنفسنا ، وما أسرعنا الى تجاهل ما نعلم ونسيانه · ولهذا كنت لا أعجب اذ أراه يختتم خطابه بدعوة الى أن نتعلم ، لا أظن أحدا يسمعها ·· سوى الأصدقاء ·



٥ ـ لم ترجمة هذا المقال ؟

ليس هنا معرض الاطالة فى الرأى فى تحليلات لابويسيه . يكفى القول بأنه قد لمس الأساس التخييلى للعبودية المختارة ، الا وهو شبق الجميع الى الكمال أو الى ما يرون فيه صورة الواحـــد الذى لا يخالطه نقص . فأما قدرة الصور على اثارة أعنف المشاعر وأشدها جموحا فأمر تشهد به خبرة كل منا وبخاصـــة فى عصرنا الذى انتشرت فيه دور الخيالة والأجهزة المســماة بأجهزة « الرؤية عن بعد » (تلفيزيون) . لا بل ان الطبيعة نفســها ـ كما يثبت من نظرية الجشتالت وتجاربها ـ لاترشد سلوك الحيوان الا بظهورها له بمظهر الصـــور . الفرق هنـــا بين الانسان والحيوان هو أن الأول تستبد بجوانحه صورته حتى أنها لتخلع ظلها على كل مظاهر الكون . ولكن لابويسيه ما كان يستطيع ، والعصر عصره ، الالتفات الى أساس العبودية الرمزى الذى يخرج من النظر فى طبيعة العلاقة باللغة وفى قيم الكلمة . وهو موضوع كرست له بضع صفحات فى مجلة ابداع ويمكن اختصـــاره أو بالأدق اقتضـــابه فى جملة مؤداها أنه لا قيام لمجتمع الا بخلق من لا يسأل فى المعتقدات : هو المرجع الأخير وهو الذى يستقطب تصديق أفراد الجماعة ومنه تستمد كل سلطة شرعيتها اذ تتحدث باسمه اليهم . ولكن أحـــرى بى ذكر السبب الذى من أجله أقبلت على نقل هذا المقال الى العربية .

أظن أن القارىء قد فطن اليه . انه تخلفنا العقلى الذى ندد به

عن حق الدكتور فؤاد زكريا والذى يتجلى أوضح ما يتجلى فى فقر فلسفتنا السياسية ـ ان كانت لنا فلسفة ـ التى انحصرت فى بضع قضايا صارت تجرى مجرى البديهيات حتى لم نعد نحلم بمراجعتها ومراجعة أنفسنا رغم شبهها الجوهري بتلك التي سادت في الغرب ابان العصور الوسطى والتى لم يتوقف درسها ونقدها هناك حتى اليوم . مثال ذلك وقوفنا عند ابراز وحدة المجتمع المبنية على التاريخ واللغة والعقيدة مع اغفال انقساماته المبنية على اســتغلال الناس بعضهم بعضا اذا استطاعوا وعلى تضـــارب المنـافع ، تشبيه هذه الوحدة بالجسم الذي رأسه في السماء (وما السماء عند أهل الكتاب الا الكتاب) وقدماه على الأرض (ولا غرو فما القدمان الا الكادحون عليها) ، المسارعة بعد الخلاص الفكري من العبودية ينفي السيادة أو الربوبية عن كل انسان ، المسارعة الى الارتماء الفعلي في أحضانها طلبا لحاكم بشر لا يتم بدون بلاغ من الرأس الى الأعضاء ؛ اقتصار الآراء في معايير شرعيته وحدود سلطاته على تعريفات مثالية (كأن يكون عاقلا ، فاضلا ، يأخذ بالشوري) دون العمل على وضع نظم يستن بها فى محاسبته محاسبة ذات أثر .

هذا التخلف سوف يزداد يوما بعد يوم لأننـــا شعب يعانى قهرا لا مراء فى دوافعه الاقتصادية ، وأعنى بها اســتغلال الأقوى للأضعف ضمانا لرخائه ، ولكن لا مراء أيضا فى كونه قهرا لا يتورع عن التلون بضراوة صليبية اذا ما شب نزاع (هل يحتاج القارىء الى مثال ؟) ثم هو قهر لم يقف عند استنزاف الثروات شـــأن الاستعمار فى العهود القديمة ، بل هو قد نسفت مدنيته الصناعية ونسفت سوقه العالمية كل المناخ الذى كانت الحضارات الأخرى ترى فيه نفسها والذى كان يسبغه عليها انتاجهـا هى . الحرف التقليدية زالت ، والغذاء والشراب تقلبا ، المسكن لم يعد كالمسكن ، حتى السمر لم يعد كالسمر ، بل العبادة نفسها ـ وقد احتواها التلفزيون والراديو والميكروفونات ـ نخشى اليوم تحولها الي ما صار

يسمى بالدين الالكتروني • هذا القضاء على الاختلافات بين الحضارات وعلى سماتها المميزة من شأنه ـ وذلك أمر أدركه هيجل منذ أوائل القرن التاسع عشر ـ ألا يترك لأمة سبيلا الى الشعور بوجودها الا بالتأكيد المجرد لذاتيتها المستمدة من تاريخها ولغتها ثم أخيرا وليس آخرا من التكاليف والنواهي التي يمليها عليها دينها • ومنه التصاعد الذى لا مرد له لما يسمى بالعنصرية • ومنه أيضا النظرة الى المستقبل باعتباره ماضيا سوف يتكرر ، كما نبه اليه كذلك الدكتور فؤاد زكريا ، أى قل بعبارة أصرح : ضياعه ضياعا مؤكدا ، فان بقي مجال لحاضر عدا الاغراق فى تمجيد الماضى مداواة لجراحنا لم تر الا تلقطا لأفكار راجت في الغرب وروج لها حتى صارت هي الأخرى تجرى مجرى البديهيات ، لا تكاد تحظى منا بأى نصيب من النقد الذى تلقاه فى الغرب نفسه • فنحن اليوم بين قسمين نقيضين :

قسم يسير نحو الماضى المنتظر حتى لتراه يخطط من أجل تكوين الجماعة التي سوف تعيد فتح العالمين ، كأننا لم نكن في بلد انفرد بين بلاد العالم بأن صارت حدوده العسكرية لا تطابق حدوده السياسية ، وكأن الغزو أوجب من التحرير وأسبق ! ثم هم اذ فاتهم السؤال عن معنى الدعوة الى الطاعة المطلقة لأوامر الخالق اذا صارت ذريعة للامارة على الخلق ، لم يتورعوا عن تكفير من خرج عن دائرتهم ، كأن تكفير من ولد على دين أبيه فرضى به ولم يرتد عن الانتساب الى قومه ليس ادعاء على من هو أعلم بالأعمال والنيات وبما لها من ثواب أو عقاب • فأما علماؤنا فهم كذلك لاتفكير لهم الا فى الحدود والنواهي ، والحسنات والمعاصى ، والحلال والحرام ، حتى ليذكرونا بالمسيحيين فى أول عهدهم منذ عشرين قرنا حين كان شاغلهم الشاغل هو أن يعرفوا اذا كان أكل اللحوم المقدمة قرابين الى الأصنام حلالا أم حراما (وأضيف بين قوسين أن الآراء

اختلفت والدين واحد) وحتى ليساورنا الشك اذا كان مبتغاهم رضا الله أو ارضاء وساوسهم . فاذا كان هذا الكلام تجنيا أو كذبا فليقولوا لم تركوا هذه الأسئلة : هل استغرقت الأوامر والنواهي الارادة الالهية فلم يعد فيها لدى البشر من سر ؟ واذن هل يضمن الانسان بطاعتها ـ والنفس أمارة بالسوء ـ رضا الله ، أم هذا الرضا فضل منه لا تكفي فيه الأعمال ؟ هل كان رجاء الانسان ـ والنفس الانسانية هي ما هي ـ البراءة يوم الحساب ، أو يتعداه الى طلب الصفح والغفران ؟ أضف أن رسالة تختتم بها الرسالات ، كيف تفهم فهما صادقا اذا هي فصلت عما سبقها من الرسالات ؟ لم ترك علماؤنا ترجمة التوراة والعهد الجديد ـ وبين دفتيهما دينان منزلان ـ ليد الآباء اليسوعيين وحدهم فأخرجوها ركيكة ، تزيد النص في بعض المواضع غموضا على غموض ، وان لم تخل من بعض الطلاوة والأمانة على روح السرد ؟ ثم ما مأتى الاختلاف بين نصوص حوت كلها رسالات سماوية ، لا في النواهي فقط بل في النواهي والعقائد والروايات ؟ ألاختلاف العصور ؟ أى عصور على التحديد وفيم يقوم الاختلاف ؟ ألحذف وتحريف ؟ في أى المواضع وبأى دليل ؟ انني لا أغالي اذا قلت ان الأبحاث في هذه الموضوعات تصدر في الغرب وجامعاته بالعشرات كل أسبوع ، دون أن تساور مؤلفيها أقل خشية (وجلهم قوم شبوا هم أنفسهم على النصوص التي يتوخون دراستها) على قرائها الذين يرون في هذه الدراسات سبيلا الى فهمها فهما أصح وأعمق . فجميعهم يدركون أن الدين يعلو على كل خطر ، لأن الايمان بما هو قبول للرحمة وللنواهي نعمة يفيض بها الله على من يشاء ، فان لم يؤمن البعض كفاهم انتسابهم الى ذات المجتمع الذي هم جزء منه ، يستعينون به على أمور الحياة والوطن كما يستعين بهم ، تاركين بعد ذلك أمره لربه ، دون حجر أو تكفير . وهنا يكمن في المحل الأول سر وحدتهم ـ ومن ثم سر قوتهم ـ اذا دق ناقوس الخطر أو قرعت طبول الحرب .

فلم خشية علمائنا التي تجعلهم يميلون الى قصر الاجتهاد عليهم احتجاجا بأن النصوص أجل وأخطر من أن يتناولها الا ذوو الاستعداد ؟ ولو أن ذلك تم لهم فلم يكن رأى الا رأيهم وكأن رأيهم وحده هو الحق ففيم يختلف عندئذ مجتمعهم عن أى مجتمع كنسى (١) ؟ .

ثم قسم يتحمس لحقوق الانسان دون أن يتساءل ، ولو على سبيل الفرض ، اذا لم يكن الالحاح على المطالبة بهذه الحقوق انما يستر نسيان الانسان لواجباته . فعلام التذكير بحقوقنا فى ألا نقتل ظلما أو نعذب اذا كنا نذكر واجبنا ألا نقتل أو نعذب ؟ فان قلت ان الأمر لا يتعلق بالعلاقات بين الأفراد بل بينهم وبين حكوماتهم ، فيقيني أن دول الغرب لم تكن لتبدى هذه الحمية فى التنديد بجرائم بعض الحكومات الأخرى نحو شعوبها لو أنها لم تسبق الى نسيان أقل واجباتها الانسانية فنكلت بمعظم شعوب الأرض ، فرادى وجماعات ، ولا أتحدث عن فحشها الذى بلغ الى حد تجريم كفاح الشعوب . المسلوبة حقوقها فنسبته الى الارهاب - هل يحتاج القارىء الى مثال ؟ أما الديموقراطية فنرحب بها ترحيبا ربما قاله المؤرخ اليونانى توسيديدس منذ خمسة وعشرين قرنا من أن هذا النظام لا مجال له الا فى البلاد الاستعمارية التى تكفل لها هيمنتها على غيرها رخاء يخفف من حدة الصراع الطبقى بداخلها . ولو تحققنا لسألنا :

اذا كانت الثورة لا تصدر فهل الديموقراطية المصدرة أنجح ؟ هذا دون الأسئلة المتعلقة بتعريفها أتقوم فى تعدد الأحزاب ؟ فماذا لو استأثر أحدها بالحكم ؟ فى البرلمانية ؟ فماذا لو تحول

---

(١) أشير هنا الى فكرة أن البابا لا يخطىء فكرة اخترعتها الكنيسة لا توسيعا لسلطاته ، كما نظن ، بل حد لها بحيث لا يحل للاحق الغاء قرارات السابق ... ما دام لا يخطىء !

البرلمان الى حلبة صراع لايهدف أي طرف فيها الا الى فرض آرائه ـ وهو تحول تعاني منه البرلمانية حاضرا حتى في البلاد الأوروبية ؟ واذا كانت البرلمانية شيئا لا مفر منه منذ أن اتسعت رقعة الدولة من المدن الصغيرة الى الأمم التى يبلغ تعدادها الملايين مما لا يجعل بدا من اللجوء الى الانتخاب ، فما هي العلاقة الحقيقية بين الناخبين ومن يمثلهم ؟ وما معنى هذا التمثيل ؟ أيحل محلهم ـ اذا كان هذا هو المعنى ـ لتلاشيهم فيه أو لتلاشيه فيهم ؟ أينطق باسمهم ليقول ما يرى أو مايرون ؟ وهل يتفق هذا التمثيل مع المساواة التى هى في نظـر البعض مطلب جوهري من مطالب الديموقراطيـة ـ وهو ما يؤدى الى اللجوء الى الاستفتاء فى كل المسـائل الحيوية ، ويؤدى اقتصـاديا الى الشيوعيـة ـ أم أن المطلب ، كمـا يراه الليبراليون ، ليس المساواة التى يجب ألا تتعدى حدود المسـاواة أمام القانون ، بل الحرية ، بمعنى مجتمع تنمو فيه الفروق الطبيعية بين الناس نموا حرا ؟ أغلب الظن أننا نعد هذه الأسئلة لا طائل منها لأن الديموقراطية الحديثة تقوم على المساواة من حيث أنه لكل فرد ، مهما علا ، صـوتا ، وعلى البرامج التى تقدمها الأحزاب الى الشعب . وهنا نسمع الاشادة بالشعب وبارادته التى هى مصدر السلطات دون التفات الى تضارب الآراء فى الغرب نفسه بل تخبطها حول تعريف الشعب (أهو الأمة أو جزء منها وأى جزء) وفى تعريف ارادته (أهى فكرة من أفكار القانون العام أم قوة قائمـة بذاتها ، مستقلة عما يعلن عنها فى الانتخاب أو الاستفتاء أو ما اليهما) ، ولا الى الآراء التى تربط تعريف أحد هذين الحدين بتعريف الحد الآخر ، كما فى قول هيجل بأن الشعب هو هذا الجزء من الأمة الذى لا يعرف ما يريد أو يعرف أحيانا ما لايريد ـ ولن أتطرق الى الحديث عن القيادة التى لم يجد لهـا أحد مفهوما شـافيا ، ولا عن علاقة الشعب بها ، التى دفعت البعض الى حد القول بأن « الشعب » ان هو الا اسم الجمع الذى يتوسل به القادة من كل مذهب الى خلق المرآة.

التي يروق لهم تأمل مجدهم فيها ٠ فالأهم من ذلك هو أننا في كثير من الأحيان لانكتفي بتلقط هذه الشعارات والاعجاب بها ، بل نحاول تبرير هذا الاعجاب لا بدرس تاريخها ، الذى ربما خفف من غلواء هذا الاعجـــاب ، بل بالتقريب بينها وبين التراث الاســـلامي ٠ كالتقريب بين الشورى والديموقراطيـــة ، وهو مغالطة فجـــة لأن الشورى أسلوب في الحكم بما هو وصـــاية بينما الديموقراطيـة أسلوب في اقامة الحكم نفسه فالمقارنة بين الفكرتين دون اعتبـــار لعلاقة كل منهما بالدولة يفرغ المقارنة من كل معنى ٠ أو كالتقريب الذى لم أعرف كيف أتجنبه في طبعة سابقة لهذا الكتاب بين فكرتي المصلحة العامة والجماعة ، وهو أيضا مغالطة لأن المصلحة العامة فكرة يتمركز حولها كيان المجتمع المدنى كله وتفترض وجود المصالح الخاصة ، بينما الجماعة وحدة روحية ، ربما كان أول مدلول لها هو جماعة المصلين في المسجد ، فان أحـــالت الى فكرة غيرها فالى الامامة ٠ فان صح ذلك جاز أن نسأل : هل عرفنـــا خلال تراثنا الاسلامي كله شيئا يشـــبه من قريب أو بعيد ٠ المجتمع المدنى ؟ ألم ننس واو العطف في كون الاسلام دينا ودنيا فأبينا الا احتواء الدنيا بالدين واقتضينا العيش للآخرة وحدها كأننا نموت غدا ، وذلك باعتقادنا أن الحدود يجوز بل يجب اسناد تطبيقها الى سلطة دنيوية بدل تركه ليوم الحساب ، وهو ما ينفى علوها فوق جميع القوانين الوضعية وتميزها منها تميزا مطلقا ؟

ان المستقبل مجهول فلا أحد يدرى أهو لهذا القسم أو لذاك أو لما لا نعلم ٠ أما الحاضر فعجز أو بالأصح ردود أفعـــال تمليها سيطرة الغرب وســـيطرة العلم المتزايدة على مصـــائر المجتمعات الانســـانية ، لا استجماع للفكر الاســـتجماع الذى ننشط به لنغير ما بأنفسنا ٠

هنا تحديدا تقع مسئولية المثقفين ٠ لعل هذا الكتاب بشير

بظهور طبقة من « المحدثين » كالذين ســبق ظهورهم ابان العصر الوسيط والذين لم يتورع القطاع المحافظ من ثقافة هذا العصر عن ادانتهم (عام ١٢٧٠) متهما اياهم بالاباحية المنسوبة الى ؟ ... الى تأثرهم بفلاســفة الاســلام ! فان استنطقنا نحن تجربتهــم تبين لنا ـ وقوى العبودية المختارة هى ما رأينا ـ أن مستقبل هذا البلد ، اذا كان لكلمة « المستقبل » معنى ، مرهون فى المحل الأول بظهور طبقة من الناس لا عمل لهم سوى الفكر والكلمة ، ولا قضية لهم الا التسامح الفكرى .

مقـــال

فى العبودية المختارة (*)

(*) جميع الهوامش من وضع المترجم ·

كثرة الأمراء سوء
كفى سيد واحد ، ملك واحد (١)

بهذه الكلمات خطب أوليس القوم فى هوميروس • ولو أنه وقف عند قوله :

كثرة الأمراء سوء

لأحسن القول بما لا مزيد عليه • لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتى منها الخير ما دامت القوة المسندة الى واحد ، متى تسمى باسم السيد ، صعبة الاحتمال منافية للمعقول راح يعكس الكلام فأضاف :

كفى سيد واحد ، ملك واحد

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته اذ لم يكن له مفر من استخدام هذه اللغة حتى يهدىء ثورة الجيش مطابقا بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة • فان وجب الحديث عن وعى صادق فانه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطبيعته

(١) عن الالياذة ، الأنشودة الثانية ، البيتان ٢٠٤ و ٥٠٢ • كانت جيوش اليونانيين تحاصر طروادة منذ تسع سنوات دون أن تتمكن من الاستيلاء عليها فبدأ المحاربون يستهويهم اقتراح العودة الى ديارهم دون تحقيق النصر • الا أن أوليس استوقفهم يشرح حجته للقواد من أقرانه ، فان تحدث الى جندى عنفه وذكره أن واجبه الطاعة لا الأمر والرأى ، لأن الأمر والرأى انما يكونان لواحد •

أبدا ما دام السوء في مقدوره متى أراد ، فان تعدد الأسياد تعدد البؤس الذى ما بعده بؤس بقدر ما نملك منهم . وما أريد فى هذه الساعة طرق هذه المسألة التى كثر الجدل فيها : اذا ما كانت أشكال الجمهورية (١) الأخرى تفضل حكم الواحد (٢) . ولو أردت لوددت

هذا ولقد كانت المدن أو الدول اليونانية الأولى (حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد) تتألف من عصبيات يرأسها ملوك وأمراء مثل الذين أشاد هوميروس بحروبهم على طروادة . صحيح أن هوميروس كان يفصل بينه وبين هذه الوقائع نحو ثلاثة قرون وأن الهامه كان يستند فى أغلب الظن الى روايات كانت لا تزال تتردد على الأفواه ابان حياته (القرن الثامن ق.م.) الا أن التطابق بين أوصافه وبين ما يمكن استنباطه من الحفريات يدعو الى الأخذ بصحتها . فلا شك فى أن هؤلاء الملوك والأمراء كانوا يتفاخرون بانتسابهم الى الآلهة وأن هذا الانتساب لم يكن يلقى تصديق الجميع وحسب بل أن عامة الناس كانوا يرون فيه تحديدا السبب الذى من أجله تسرع الى خدمتهم والقتال فى سبيلهم . وهذه ظاهرة لا تزال نشهدها بين العشائر التى يتألف منها كثير من المجتمعات الى يومنا هذا ، كل الاختلاف الذى ينجم حين تعتنق هذه المجتمعات عقيدة التوحيد هو أن الرؤساء لا ينسبون أنفسهم الى الآلهة بل الى الأنبياء والغزاة والأبطال من كل مضمار .

أمر آخر يجدر الوقوف عنده . ذلك أن الكلمات دالة فى اللغة اليونانية (واللغة دستور الجميع ، اذا جاز التعبير) على علو المكانة (مثل أريسطوس وأجاثوس وأستلوس ، الخ .) كانت تدل كذلك على السمو الخلقى . وهذه أيضا ظاهرة لا نزال نشهدها الى يومنا فى اللغة الانجليزية مثلا حيث تدل ذات الكلمة (نوبل) على الانتماء الى الطبقة الارستوقراطية وعلى صفة تسند الى أفعال الشخص أو حتى الى ما يقدمه من النبيذ .

(١) الكلمة التى جرى العرف بترجمتها بالجمهورية كانت ترد فى القرن السادس عشر بالمعنى الحرفى الذى يخرج من اشتقاقها ، وهى مشتقة من كلمتين فى اللغة اللاتينية : رس بمعنى شىء وبوبليكوس بمعنى عام . ومنه كان معناها الأضبط هو المنفعة أو المصلحة العامة . كانت هذه الفكرة أحد التصورات الأساسية التى ينبنى عليها القانون الرومانى ، بينما تأخذ الترجمات العربية بجانب الكثرة لا بجانب ما يربطها من المصلحة .

(٢) هنا أيضا يستخدم المؤلف كلمة تترجم اليوم بالملكية وترجمناها بحكم الواحد لاشتقاقها من اليونانى مونوس بمعنى واحد وآركى بمعنى السلطة أو الحكم .

قبل النظر في مكانة هذا الحكم بين الأشكال الأخرى أن أعرف أولا هل له مكانة ما ، لأن من الصعب الاعتقاد ببقاء شيء يخص جمهور الناس حيث ينفرد واحد بكل شيء • ولكن هذه مسألة متروكة لوقت آخر وتقتضي مقالا يفرد لها والا جلبت معها جميع المنازعات السياسية •

فأما الآن فلست أبتغي شيئا الا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس ، من البلدان ، من المدن ، من الأمم أن يحتملوا أحيانا طاغيا واحدا لا يملك من السلطان الا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى الا بقدر احتمالهم الأذى منه ، ولا كان يستطيع انزال الشر بهم لولا ايثارهم الصبر عليه بدل مواجهته • انه لأمر جلل حقا وان انتشر انتشارا أدعى الى الألم منه الى العجب أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر بل هم (فيما يبدو) قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الأسم الذي ينفرد به البعض ، كان أولى بهم ألا يخشوا جبروته ، فليس معه غيره ، ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه الا خلوة من الانسانية ووحشيته • ان ضعفنا نحن البشر كثيرا ما يفرض علينا طاعة القوة ونحن محتاجون الى وضع الرجاء في الارجاء ما دمنا لا نملك دائما أن نكون الأقوى • فلو أن أمة أجبرت بقوة الحرب على أن تخدم واحدا (مثل أثينا الطغاة الثلاثين) (١) لما وجب الدهش لخادميتها

---

(١) كانت الديموقراطية في اثينا (مثلها في الولايات المتحدة اليوم) لا تنفصل عن سياستها المتسيظرة أو الامبريالية التي كانت تكفل رغد مواطنيها • لذا أعلن عليها الحرب عام ٤٣١ ق•م• درءا لهذه السياسة عدد من المدن أو الدول اليونانية تزعمته أسبرطة ، وهي الحرب المعروفة باسم حرب البيلوبونيز • وفي عام ٤٠٤ ق•م• انتهت هذه الحرب الطويلة بهزيمة اثينا وبان أملت أسبرطة على شعبها مجتمعا في مجلسه اختيار ثلاثين « محررا » (لوغرجرافوي) أوكل اليهم تحرير دستور جديد • ولم يلبث هؤلاء الثلاثون الذين كانوا ينتمون الى الطبقة الأوليجاركية أي الى القلة الثرية ذات الحسب أن استولوا على زمام الحكم ولم يلبث حكمهم =

بل الرثاء لنازلتها ، أو بالأحرى ما وجب الدهش ولا الرثاء بل الصبر على المكروه والتأهب لمستقبل أفضل ·

ان من شأن طبيعتنا أن تستغرق واجبات الصداقة المشتركة بيننا قسطا لا بأس به من مجرى حياتنا · فمن العقل محبة الفضيلة وتقدير الأعمال الجليلة وعرفان الفضل من حيث تلقيناه والاستغناء أحيانا عن بعض ما فيه راحتنا لنزيد به شرفا وامتيازا من نحب ومن استحق هذا الحب · فلو أن بلدا رأى سكانه كبيرا منهم يبدي بالبرهان فطنة كبيرة فى نصحهم وجرأة شديدة فى الدفاع عنهم وترويا جما فى حكمهم فانتقلوا من ذلك الى طاعته واسلام قيادهم له الى حد اعطائه ميزات دونهم فما أدرى أهى حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدي الخير اليهم الى حيث يصبح الشر فى مقدوره · ان التخلى

= أن القلب الى رعب مسلط على الرءوس : الجيش الأسبرطى يرابط فوق الأكروبول، الأجانب المقيمون بأثينا ومواطنوها أنفسهم اما يقتلون أو يشردون أو تصادر ممتلكاتهم ، أما الدستور الموعود فلم ير الضوء · وبلغت المأساة ذروتها حين قتل زعيم المعتدلين بين الثلاثين ، لاثيرامين ، انفرد بالحكم أعتاهم ، كريتياس · الا أن الطغاة لم يستطيعوا دفع جماعة من المتمردين ترأسهم ثراسيبول عن الاستيلاء على بيريه ، مرفأ أثينا ، بعد معركة قتل فيها كريتياس من الأوليجاركيين وبين الديموقراطيين اتفاقا توسط فيه ملك اسبرطة · وانتهت المحنة برجوع النظام الديموقراطى فى أواخر صيف ٤٠٣ ق·م· والقضاء على فلول الثلاثين · ويعد هذا الاتفاق صفحة من أمجد صفحات الديموقراطية فى أثينا لأن ثراسيبول قد أمكنه من جهة فرض مطالب الشعب (أى الفلاحين والحرفيين وبعض التجار) ، ومن ناصره من العبيد والأجانب ولكنه من جهة أخرى قد أمكنه اقناع الشعب بالا يشتط فى مطالبه الى الحد الذى يخلق حزازات وضغائن لا نهاية لها فى وقت خرجت فيه أثينا والدول اليونانية عامة من الحرب ضعيفة منهكة الى حد لم تقم لها قائمة بعده ومكن فيليب المقدونى وابنه الاسكندر من افتراسها · ويذهب بعض الكتاب المعاصرين الى أن الاتفاق المذكور كان بمثابة النقلة التى حلت فيها فوقية القانون أو سيادته العليا محل فوقية ارادة الشعب · ولكن المغزى الأوضح الذى يخرج من هذا الاتفاق هو أن « القانون » انما يعنى هنا العقد الذى تم بمقتضاه التراضي بين الطبقات فى وقت لم يكن فيه بد من التراضى ·

عن خشسية الشر ممن لم نلق منه الا الخير لحكمة لو كان محالا ألا يخالط طيبته نقص .

ولكن ما هذا يا ربى ؟ كيف نسمى ذلك ؟ أى تعس هذا ؟ أى رذيلة أو بالأصدق أى رذيلة تعسة ؟ أن نرى عددا لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون ولا أقول يحكمون بل يستبد بهم ، لا ملك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسهـا ليست لهم ! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبى ينبغى عليهم الذود عن حياضهم ضده بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث (١) ، هو فى معظم الأحيان أجبن من فى الأمة وأكثرهم تأنثا ، لا ألفة له بغبار المعارك وانما بالرمل المنثور على الحلبات (ان وطئها) ولا هو يحظى بقوة يأمر بها الناس بل يعجز عن أن يخدم ذليلا أقل أنثى (٢) ! أنسمى ذلك جبنا ؟ أنقول أن خدامه حثالة من الجبناء ؟ لو أن رجلين، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئا غريبا لكنه بعد ممكن ولو سعنا القول عن حق ان الهمة تنقصهم. ولكن لو أن مائة ، لو أن ألفا احتملوا واحدا ألا نقول: انهم لا يريدون صده ليس لأنهم لايجرءون على الاستدارة له ، لا عن جبن بل احتقار له فى الأرجح واستهانة بشأنه ؟ فأما أن نرى لا مائة ولا ألف رجل

---

(١) يبتدع لابويسيه فى هذا الموضع لفظا فرنسيا استمده من لفظ لاتينى نجده عند شيشيرون والمؤلف المسرحى بلوط بمعنى صيغة التصغير من رجل ، كما لو قلنا بالعربية « رجيل » . آثرنا ترجمته بكلمة « خنث » من « خنث » الرجل خنثا : كان فيه لين وتكسر وتثن فكان على صورة الرجال وأحوال النساء فهو خنث » (عن المنجد) .

(٢) ثار نقاش حول من المراد بهذا الوصف : أهو شارل التاسع أو هنرى الثالث ؟ ولكن الأصح أن المؤلف انما أراد أن يرسم صورة نموذجية وان صدقت على كثير من الحكام دحضا للرأى القائل بأن هناك من جعلوا بطبيعتهم للسيادة وهناك من جعلوا مسودين .

بل مائة بلد ، ألف مدينة ، مليون رجل ، أن نراهم لا يقاتلون واحدا أقصى ما يناله من حسن معاملته أي منهم هو القنانة والرق فأنى لنا باسم نسمى به ذلك ؟ أهذا جبن ؟ ان لكل رذيلة حدا تأبى طبيعتها تجاوزه • فلقد يخشى اثنان واحدا ولقد يخشاه عشرة • فأما ألف ، فأما مليون ، فأما ألف مدينة ان هي لم تنهض دفاعا عن نفسها فى وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب الى هذا المدى كما أن الشجاعة لا تعنى أن يتسلق امرؤ وحده حصنا أو أن يهاجم جيشا أو يغزو مملكة • فأى مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذى لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد لمة تكفى قبحه والذى تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته ؟

ضع بجانب خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح • وضع مثلهم بالجانب الآخر • دعهم يصطفون للمعركة ثم يلتحمون ، بعضهم أحرار يقاتلون دفاعا عن حريتهم والبعض الآخر بغية سلبهم اياها • ترى من تظنك تعد بالنصر ؟ من تظن أنهم ذاهبون الى ساحة القتال بخطى مقدامة ؟ من يأملون الاحتفاظ بحريتهم جزاء على عنائهم أم أولئك الذين سواء كالوا الضربات أو تلقوها لم ينتظروا أجرا عليها سوى استعباد الغير ؟ الأولون يضعون دائما نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية وتوقع نعيم يماثلها فى المستقبل ولا يفكرون فى القليل الذى تلزم مكابدته زمن المعركة بقدر ما يفكرون فيما سيفرض عليهم أبدا الدهر ، هم وأولادهم وجميع ذريتهم • فأما الآخرون فلا حافز لهم الا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر ولا يمكن أن يبلغ التهابه حدا لا تطفئه أول قطرة من الدم تنضح بها

جروحهم . خذ المعارك المشهودة التى خاضها ميلسيادس وليونيداس وثميستوكل منذ ألفي عام (١) والتى مازالت تحيا في صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم كأن رحاها لم تدر الا بالأمس على أرض الاغريق ، من أجل الأغريق ومن أجل أن تكون مثلا للدنيا قاطبة : ما الذى فى زعمك أعطى فئة قليلة قلة الاغريق اذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود فى وجه أساطيل بلغ من حشدها أن نـاء بثقلها البحر وعلى أن يدحروا أمما بلغ من كثرتها أن كتيبة الاغريق بأسرها ما كان يكفى جنودها تزويد أعدائها ولو بالقواد ليس غير ؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن فى هذه الأيام المجيدة معركة الاغريق ضد الفرس بقدر ما كانت تعني انتصار الحرية على السيادة وانتصار العتق على جشع الاسترقاق ؟

انا ندهش اذ نسمع قصص الشجاعة التى تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها . أما ما يقع فى كل بلد لكل الناس كل يوم : أن يقهر واحد الألوف المؤلفة ويحرمها حريتها فمن ذا الذى كان يسعه تصديقه

(١) ميلسيادس قائد اثينى تحقق بفضله أول انتصار حازه الاغريق ضد الفرس وذلك فى معركة ماراتون عام ٤٩٠ ق.م. ثيميستوكل قائد آخر يرجع الى سياسته من أجل تقوية الأسطول الأثينى ويرجع الى براعته ونبوغه الفضل الأول فى انتصار اليونانيين الحاسم فى معركة سلامين البحرية عام ٤٨٠ ق.م. التى انتهت بها حملة كسركس الثانية التى كان قد أعد لها جيشا يقدر بمائة ألف مقاتل . واسطولا يقدر بألف سفينة . أما ليونيداس فاسبرطى خلد ذكره استشهاده مع ثلاثمائة من رجاله في معركة مضيق ثرموبيل التى خاضها بغية تعويق تقدم الفرس فى البر . هذا ولقد صار هذا الانتصار رمزا الى الحرية على الاستبداد . وصحيح أن شعوب الاغريق كانت لها فى ادارة شئونها مشاركة حرمت منها فى أغلب الظن شعوب العدو وأن هذا الفارق ربما لعب دورا هاما فى هذا الانتصار . ولكن ذلك لا يمنع أن هذه الحرب أيا كان وجه استخدامها لأغراض الرمز كانت فى واقع أمرها صراعا ضاريا بين قوتين تهدف كل منهما الى السيطرة على المعمورة : فارس وأثينا . ومن المعلوم أن المدن أو الدول اليونانية ما أن تحقق لها هذا النصر المشترك حتى عادت الى تفرق بعد اتحاد وحتى شن بعضها الحرب على أثينا فى حرب البيلوبونيز التى سبقت الاشارة اليها .

لو وقف عند سماعه دون معاينته ؟ ولو أن هذا القهر لم يكن يحدث الا فى بلد أجنبى وأرض قاصية ثم تردد نبؤه أكان أحد يتردد فى ظنه كذبا وافتراء لا حقيقة واقعة ؟ ومع هذا فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر الى محاربته وهزيمته ، فهو مهزوم خلقة ، بل يكفى ألا يستكين البلد لاستعباده • ولا الأمر يحتاج الى انتزاع شيء منه بل يكفى الامتناع عن عطائه • فللبلد اذا أراد ألا يتحمل مشقة السعى وراء ما فيه منفعته ، كل ما يقتضيه الأمر هو الامساك عما يجلب ضرره • الشعوب اذن ، هى التى تترك القيود تكبلها أو قل انها تكبل أنفسها بأنفسها ما دام خلاصها مرهونا بالكف عن خدمته • الشعب هو الذى يقهر نفسه بنفسه ويشق حلقه بيده • هو الذى ملك الخيار بين الرق والعتق فترك الخلاص وأخذ الغل • هو المنصاع لمصابه أو بالأصدق يسعى اليه • فلو أن الظفر بحريته كان يكلفه شيئا لوقفت عن حثه : أليس أوجب الأمور على الانسان أن يحرص أكبر الحرص على حقه الطبيعى (١) وأن يرتد ، اذا صح التعبير ، عن

---

(١) أول نص تشريعى صاغ فكرة القانون أو الحق الطبيعى هو موسوعة القانون الرومانى التى قام بجمعها وتبويبها وتعريف تصوراتها الأساسية والاشراف على تحريرها ، بأمر من الامبراطور جوستنيان ، امام رجال القانون فى عصره : تريبونيان • يبدأ النص بهذا التعريف : « قانون الطبيعة هو القانون الذى غرسته الطبيعة فى جميع المخلوقات » • تلى ذلك التفرقة بين هذا القانون المسمى أيضا باسم « قانون كافة الشعوب » وبين « قانون الدولة » أى القانون الخاص بهذه الدولة أو تلك ، ثم بيان عن سبب هذه التفرقة : « ان ضرورات الحياة الانسانية بمطالبها قد أدت بشعوب العالم الى سن شرائع معينة : نشبت الحروب بينها وأسر البعض وصار عبيدا خلافا لقانون الطبيعة • فالناس بحسب قانون الطبيعة قد ولدوا أحرارا فى البدء » • هذا بينما « تصدر جميع العقود تقريبا عن قانون كافة الشعوب سواء تعلق الأمر ببيع أو ايجار أو شركة أو ايداع أو قرض أو غيره » • فكل شعب يطبق قانونا يخصه جزء منه ويشترك بجزء آخر منه مع غيره • ولقداستعاد مفكرو العصور الوسطى الذين لم تكن فكرة الدولة عندهم قضية مسلمة لأنهم انما كانوا يشهدون دولا جديدة آخذة فى النشوء على أنقاض الدولة الرومانية المندثرة ، استعادوا فكرة القانون الطبيعى هذه لأنهم واجهوا هذا السؤال : كيف يمكن ألا =

الحيوانية ليصير انسانا ؟ ولكنى لا أطمع منه فى هذه الجرأة ولا أنا أنكر عليه تفضيله نوعا آمنا من أنواع الحيـاة التعسة على أمل غير محقق فى حياة كريمة • ولكن ! ولكن اذا كان نوال الحرية لا يقتضى الا أن نرغب فيها وكان يكفى فيه أن نريد ، أكنا نرى على وجـه الأرض شعبا يستفدح ثمنا لا يعدو تمنيها أو يقبض ارادته عن استرداد خير ينبغى شراؤه بالدم ويستوجب فقده على الشرفاء أن تصبح الحياة مرة عندهم والموت خلاصا ؟ ان الشرارة تستفحل نارها وتعظم ، كلما وجدت حطبا زادت اشتعالا ثم تخبـو وحدها دون أن نصب مـاء عليها ، يكفى ألا نلقى اليها بالحطب كأنها اذا عدمت ما تهلك تهلك نفسها وتمسى بلا قوة وليست نارا • كذلك الطغـاة كلمـا نهبـوا طمعوا ، كلما دمروا وهدموا ، كلما موناهم وخدمناهم زادوا جـرأة واستقووا وزادوا اقبالا على الفناء والدمار • فان أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا ، بلا حرب ولا ضرب ، عرايا مكسورين لا شبه لهم بشىء الا أن يكون فرعا عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى •

ان الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة • أمـا الجبناء والمغفلون فلا يعرفـون احتمال الضرورة ولا تحصيل الخير وانما يقفون عند تمنيه ، يسلبهم الجبن قوة العمل عليه ، فالرغبة فى امتلاكه انما تلصق بهم بحكم الطبيعة • هذه الرغبة ، هذه الارادة الفطرية أمر يشترك فيه الحكيم والملتات ويشترك فيه الشجاع والجبان ، به يودون تلك الأشياء التى

= يكون القانون الا بالدولة ومن أجلها وفى ظلها والا تكون الدولة الا بالقانون ومن أجله وفى ظله ؟ فوجدوا المخرج فى التمييز الذى فصله بنوع خاص القديس توماس الاكوينى بين « القانون الطبيعى » و « القانون الوضعى » • هذا وقد تجدد فى عصرنا الاهتمام بمناقشاتهم فى هذا الباب كما فى غيره ، خاصة وأن السؤال الذى أثارها قد ارتبط ارتباطا وثيقا بسؤال آخر لا يقل عنه حدة : هل جوهر القانون هو العقل أو الارادة ؟ •

يجلب اكتسابها السعادة والرضا · شيء واحد لا أدرى كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه : الحرية التى هى مع ذلك الخير الأعظم والأطيب حتى أن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطعمه · الحرية وحدها هى ما لا يرغب الناس فيه لا لسبب فيما يبدو الا لأنهم لو رغبوا فيها لنالوها ، حتى لكأنهم انما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته ·

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها ، يا لأمم أمعنت فى أذاها وعميت عن منفعتها ، تسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان ، تتركون حقولكم تنهب ومنازلكم تسرق وتجرد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم ! تحيون نوعا من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملك ما حتى لكأنها نعمة كبرى فى ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم ؛ وكل هذا الخراب ، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقينا على يد العدو الذى صنعتم أنتم كبره والذى تمشون الى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم فى سبيل مجده · هذا العدو الذى يسودكم الى هذا المدى ليس له الا عينان ويدان وجسد واحد (١) ، ولا هو يملك شيئا فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مدنكم

---

(١) لا شك أن لابويسيه يلمح هنا الى نظرية أذاعها المشرعون الانجليز فى عصر أسرة تيودور مؤداها أن للملك جسدين أحدهما مادى فان والآخر غيبى لا يتطرق اليه الفناء · هذه النظرية المضحكة فيزيولوجيا كانت لها وظيفة سياسية بالغة الأهمية هي ادخال التمييز بين ما يعود من الحكم الى شخص الحاكم وما يعود الى وظيفته أو منصبه · هذا التمييز هو الذى سمح للانجليز بمحاكمة الملك شارل ستوارت واعدامه بتهمة الخيانة دون أن يذهبوا الى الغاء الملكية كما فعل الفرنسيون فى ١٧٩٣ لأن « الملك ، كما قال أحد قضاتهم ، اسم للدوام ، باق بما هو رأس الشعب وحاكمه (حسب القانون) طالما بقى الشعب ··· وفى هذا الاسم لا يموت الملك أبدا » · أضف أن هذه النظرية مستقاة لا من العقائد النصرانية عن المسيح =

التى لا يحصرها العد الا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم .
فأنى له بالعيون التى يتبصبص بها عليكم ان لم تقرضوه اياها ؟
وكيف له بالأكف التى بها يصفعكم ان لم يستمدها منكم ؟ أنى لـه
بالأقدام التى يدوسكم بها ان لم تكن من أقدامكم ؟ كيف يقوى عليكم
ان لم يقو بكم ؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه ؟ أى
قدرة له عليكم ان لم تكونوا حماة للص الذى ينهبكم ، شركاء للقاتل
الذى يصرعكم ، خونة لأنفسكم ؟ تبذرون الحب ليذريه . تؤثثـون
بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته . تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع
شهواته . تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم
الى حروبه وسوقهم الى المجزرة ولكى يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفذى
رغباته الانتقامية . تتمرسون بالألم كيما يترفه فى مسراته ويتمرغ
فى ملذاته القذرة ، وتزيدون وهنا ليزيد قوة وشراســـة ويسومكم
بلجامه . كل هذه الألوان من المهانة التى اما البهائم لا تشعر بها أو
ما كانت تحتملها يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليه
بل محض الرغبة فيه . اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحرارا .
فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتنـاع عن مســاندته ،
فترونه كتمثال هائل ســحبت قاعدته فهوى الى الأرض بقوة وزنه
وحدها وانكسر .

بيد أن الأطباء محقون بلا شك اذ ينهون عن لمس الجروح التى
لا برء منها ، ولا أظننى أسلك مسلكا حكيما اذا أردت أن أسدى هنا
الموعظة الى الشعب بعد أن فقد كل معرفة منذ أمد طويل وصار فقدان
حساسيته بالألم دليلا كافيا على أن مرضه قد صار مميتا . لنحاول

= والكنيسة وحسب بل ايضا واكاد أقول من استعارة الجسد من حيث تطلق على
كل مجتمع دينى أو مدنى وعلى مقوماته المختلفة بما فيها الاتحادات المهنية والجامعية
التى لعبت دورا هاما فى تطور الغرب والتى يطلق عليها فى لغاته اسم ترجمته
الحرفية هى « المتجسديات » .

اذن أن نتبين لو أمكن ذلك كيف استطالت جذور هذه الارادة العنيدة ، ارادة العبودية ، الى هذا المدى البعيد حتى صارت محبة الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمت الى الطبيعة بسبب ·

أولا ، انه لأمر لا أظن الشك يتطرق اليه أننا لو كنا نعيش وفاقا للحقوق الممنوحة لنا من الطبيعة والدروس التى تلقننا اياها لكنا طيعين للوالدين بالطبع ، خاضعين للعقل ، غير مسخرين لأى كان · فالطاعة التى يحملها كل منا لأبيه وأمه دون أن يهديه اليها الا صوت الطبيعة أمر الناس جميعا شهود عليه كل عن نفسه · فأما العقل وهل يولد معنا أم لا فمسألة تقارع فيها الأكاديميون (١) ولم تتخلف مدرسة من المدارس الفلسفية عن الخوض فيها ، ولا أظنني أجانب الصواب الآن اذ أقول ان بنفوسنا بذرة طبيعية من العقل تزدهر في شكل الفضيلة اذا تعهدناها بالنصيحة الطيبة والقدوة الحسنة ولكنها على العكس كثيرا ما تغلبها الرذائل فتخمد وتنفق · غير أن الشيء المحقق هو أنه اذا كان في رحاب الطبيعة شيء واضح ، باد للعيان ولا يجوز أن نعمى عنه فذلك أن الطبيعة ، هى وزيرة الخالق وآمرة الخلق ، قد سوتنا

---

(١) المراد بالأكاديميين هنا هم أشياع الفلسفة الأفلاطونية فى القرن السادس عشر · ففى ٣٨٥ ق·م· على أرجح التقدير أسس أفلاطون بضاحية من ضواحى اثينا مدرسة عرفت باسم الأكاديمية لوقوعها بحديقة وملعب عرفا بهذا الاسم نسبة الى البطل أكاديموس · استمر نشاط هذه المدرسة تسعة قرون الى أن حلهـا جوستينيان فى ٥٢٩ ب·م· وفى القرن الخامس عشر بعد أن سقطت القسطنطينية فى يد الترك وهجرها العلماء الهيلليتيون سنحت للغرب معرفة المخطوطات المشتملة على محاورات أفلاطون ورسائله ، وما لبث أن ظهرت لها ترجمات متعددة · ومع هذا ظلت الجامعات تعرض عن تدريس فلسفته لغلبة الفلسفة الأرسطية عليها · لهذا عاد الفضل فى نشر الفلسفة الأفلاطونية التى لم يتم انتصارها الا فى القرن السابع عشر الى رجال عرفوا باسم الأكاديميين · ولم يكن غريبا أن يتجه أول اهتمام هؤلاء الى مسائل الفلسفة السياسية التى اشتغل أفلاطون بها اشتغالا لا يكاد يترك مجالا للشك فى أنه انما أسس مدرسته بغية تكوين التلاميذ تكوينا يؤهلهم لخدمة المدينة على أفضل وجه ·

جميعا على شبه واحد حتى لكأنها ، اذا جاز التعبير ، قد صبتنا فى ذات القالب ، وذلك حتى يعرف كل فى الآخرين رفاقه أو بالأصدق اخوته • واذا كانت الطبيعة وهى توزع هباتها قـــد أسبغت على البعض مزية جسدية أو عقلية ، واذا كانت رغم ذلك لم تتركنا فى هذه الدنيا كأننا فى حقل مغلق ولم تفوض الأقوياء والمكرة بافتراس الضعفاء كقطاع طرق أطلق سراحهم فى الغابة فلذلك دليل على أنها اذ أعطت البعض نصيبا أكبر والبعض الآخر نصيبا أصغر لم تكن تهدف الا الى أن تترك المجال للتعاطف الأخوى حتى يظهر وجوده مادام البعض يملك قوة العطاء والبعض الآخر الحاجة اليه • فاذا كانت هذه الأم الطيبة قد جعلت لنا من الأرض قاطبة سكنا وأنزلتنا جميعا بنفس المنزل وهيأتنا على نموذج واحد كيما يتسنى لكل منا أن يتأمل نفسه ويقترب من معرفتها فى مرآة الآخرين ، واذا كانت قد وهبتنا جميعا تلك الهبة الكبرى ، هبة الصوت والكلم حتى نزيد تعارفا وتآخيا وحتى تتلاقى ارادتنا بالاعراب المتبادل عن أفكارنا ، واذا كانت قد جهــدت بــكل السبل حتى توثق عرى التحالف والاجتماع بيننا ، واذا كانت قد بينت فى كل ما تصنع أنها لا تهدف الى توحيدنا جميعا بقدر ما تهدف الى أن نكون جميعا آحادا ، فقد ارتفع بذلك كل شك فى أننا جميعا أحرار بالطبيعة ، ما دمنا رفاقا ، وامتنع أن يدخل فى عقل عاقل أن الطبيعة قد ضربت علينا الرق بينما هى قد آلفت بيننا •

غير أن الحقيقة هى أن الجدل فيما اذا كانت الحرية حقا طبيعيا أم لا لن يكون الا تحصيلا للحاصل ما دمنا لا نسترق كائنا دون أن نلحق الأذى به وما دام الغبن أكره الأشياء الى الطبيعة التى هى مستودع العقل • اذن يبقى أن الحرية شيء طبيعي ويبقى بهذا عينه أننا (فيما أرى) لا نـولد أحــرارا وحسب بل نحن أيضـــا مفطورون على محبة الذود عنها • فان اتفق بعد ذلك أن ســاورنا شك فيما أقول وأن بلغ من فسادنا أننا لم نعد نستطيع تمييز مصالحنا ولا مشاعرنا

الطبيعية لم يبق الا أن أكرمكم الاكرام الذى تستحقون وأن أترك الحيوانات التي لا تمت الى المدنية بصلة تصعد المنبر لتعلمكم ما هي طبيعتكم وما وضع وجودكم · ان الحيوانات (أخذ الله بعونى !) اذا البشر لم يصموا آذانهم لسمعوها تصرخ فيهم : عاشت الحرية ! الكثير منها لا يكاد يقع فى الأسر الا مات · فكما السمك يترك الحياة اذ يترك الماء ، كذلك هى تترك الضوء وتأبىالعيش بعد فقدان حريتها الطبيعية ؛ فلو كانت لها مراتب لجعلت من الحرية عنوان نبالتها · فأما البقية من أكبرها الى أصغرها ، فهى لا تستسلم للأسر حين نقتنصها الا بعد أن تظهر أشد المقاومة بالأظافر والقرون والمناقير والأقدام معلنة بذلك مدى اعزازها لما تفقد · ثم هى تبدى لنا بشتى العلامات الجليلة مدى احساسها بمصابها حتى اننا لنعجب اذ نراها تؤثر الضوى على الحياة كأنها انما تقبل البقاء لترثى ما خسرت وليس لتنعم بعبوديتها · هل يقول الفيل شيئا آخر حين يقاتل دفاعا عن نفسه حتى يستنفد قواه ويرى ضياع الأمل ووشوك الأسر فاذا هو يغرس فكيه محطما على الشجر سنيه ، هل يقول شيئا آخر سوى أن رغبته الشديدة فى البقاء حرا تلهمه الذكاء فتحثه على مساومة قناصيه لعلهم يتركون له الحرية ثمنا لعاجه ولعله يفتدى به حريته ؟ انا نستأنس الجياد منذ مولدها لندربها على خدمتنا ، فاذا كنا مع ذلك حين نجىء الى ترويضها نعجز عن ملاطفتها الى الحد الذى لا يجعلها تعض الحكمة وتنفر من المهماز فما هذا فى اعتقادى الا شهادة منها بأنها انما تقبل خدمتنا كارهة لا مختارة · ما القول اذا ؟

حتى البقر أن تحت النير
وشكا فى أقفاصه الطير ،

كما عن لى قوله حينا شغلنى فيه نظمنا الفرنسى (١) ، لأنى وأنا أكتب اليك يا لونجا (٢)مازجا بالكلامأشعارى التى لا أقرؤها أبدا ، لا أخشى قط أن يجرك ما تبديه من الرضا عنها الى جعلها مدعاة لفخـرى • خلاصة القول أنه لما كانت جميع الكائنات الحاصلة على الحس تشعر اذ تحصل عليه بألم خضوعها وتسعى وراء حريتها ، ولما كانت الحيوانات وهى المجعولة لخدمة الانسان لا تستطيع أن تألف العبودية دون أن تبدى احتجاجا يعرب عن الرغبة فى الضد ، فما هى تلك الرذيلة التى استطاعت أن تمسخ طبيعة الانسان ، وهو وحده المولود حقيقة ليعيش حرا ، وأن تجعله ينسى ذكرى وجوده الأول وينسى الرغبة في استعادته ؟

هناك ثلاثة أصناف من الطغاة : البعض يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب والبعض الآخر بقوة السلاح والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم •

فأما من انبنى حقهم على الحرب فنعلم جيدا أنهم يسلكون ، كما نقول ، فى أرض محتلة • وأما من ولدوا ملوكا فهم عادة لا يفضلونهم قط لأنهم وقد ولدوا وأطعموا على صدر الطغيان يمتصون جبلة الطاغية وهم رضاع وينظرون الى الشعوب الخاضعة لهم نظرتهم الى تركة من العبيد ويتصرفون في شؤون المملكة كما يتصرفون في ميراثهم ، كل بحسب استعداده الغالب نحو البخل أو البذخ • أما من ولاه الشعب مقاليد الدولة فينبغي فيما يبدو أن يكون احتماله أهون • ولقد يكون الأمر كذلك على ما أعتقد لولا أنه ما أن يرى نفسه يرتقى مكانا يعلو به الجميع وما أن يستغويه هذا الشيء الغريب المسمى بالعظمة حتى يعقد النية على ألا ينزاح من مكانه قط • ثم أن هذا الرجل لا يلبث

---

(١) لا وجود لهذين البيتين فى أشعار لابويسيه التى نشرها مونتنى -

(٢) عضو برلمان بوردو الذى اخذ لابويسيه مقعده ، واليه أهدى مخطوطه -

آن يشرع عادة في اسناد القوة التي سلمه الشعب اياها الى أبنائه ٠ وما أن يتلقف هؤلاء هذه الفكرة حتى نشهد شيئا عجبا : نشهد الى أى مدى يبزون سائر الطغاة فى جميع أبواب الرذائل بل فى قسوتهم دون أن يروا سبيلا الى تثبيت دعائم الاستبداد الجديد سوى مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرية عن أذهان رعاياهم حتى يعفو عليها النسيان رغم قرب حضورها فى ذاكرتهم ٠ فكلمة الحق هى أنى أرى بعضا من الاختلاف بين الطغاة ولكنى لا أرى اختيارا بينهم لأن الطرق التى يستولون بها على زمام الحكم تتعدد ولكن أسلوب الحكم لا يكاد يختلف : فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله ، والغزاة كأنه فريستهم ، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكا طبيعيا ٠

فهب فى هذا الموضع أن الصدفة شاءت أن يولد نمط جديد كل الجدة من البشر ، لا ألفة لهم بالعبودية ولا ولع بالحرية ولا يعلمون ما هذه ولا تلك بل يجهلون حتى اسميهما ، ثم خيروا بين الرق وبين الحياة أحرارا ، فعلام يجمعون ؟ لا مجال للشك فى أنهم سوف يؤثرون طاعة العقل وحده على خدمة رجل ما ـ هذا الا اذا كان هؤلاء القوم هم شعب اسرائيل الذى نصب طاغيا عليه بغير اكراه ولا احتياج : وانه لشعب لا أقرأ قصته أبدا دون أن يملكنى حنق عظيم حتى لأكاد أتجرد من الانسانية فأفرح بجميع ما نزل عليه بعدئذ من البلايا (١) ٠

---

(١) اشارة الى ما ورد فى العهد القديم (صموئيل الأول - الاصحاح الثامن) من أن كل شيوخ اسرائيل اجتمعوا وجاءوا الى صموئيل يسألونه أن يجعل لهم ملكا يقضى لهم كسائر الشعوب (وكان يحكم اسرائيل قضاة) ٠ فساء الأمر فى عينى صموئيل فصلى الى الرب فامره بان يصنع ما طلب الشعب بعد أن ينذره ٠ فأنذره : « هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم ٠ يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ٠ ويجعل لنفسه رؤساء الوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ٠ ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ٠ ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها =

ولكن طالما بقي بالانسان أثر من الانسان فهو يقينا لا ينساق الى العبودية الا عن أحد سبيلين : اما مكرها واما مخدوعا • مكرهـــا اما بسلاح أجنبي مثـل مدينتي اسبرطـة وأثينـا اذ قهرتهما قوات الاسكندر ، واما بطائفة من مجتمعه مثلما حدث في أثينا في زمن أسبق حين استولى بيسيستراتس على مقاليد الحكم (١) • فأما الخديعة من حيث تؤدي أيضا الى فقدان الحرية فرجوعها الى تغرير الغير يقل في أكثر الأحيـان عن رجوعهـا الى كون النـاس يخدعون أنفسـهم بأنفسهم • مثال ذلك شعب سيراقوصة (عاصمة صقلية) اذ هجم

= ويعطيها لعبيده • ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده • ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله • ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا • فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم • فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك » • ومما يذكر أن اختيار صموئيل قد وقع بايعاز من الرب على شاول • فجعله ملكا بان أخذ « قنينة الدهن وصب على رأسه وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا » • وهكذا بدأت طقوس الدهن في التراث اليهودي المسيحي •

(١) كان بيستراتس ينتمي الى الطبقة الأرستوقراطية الحاكمة • برز في الحرب بين أثينا وميغارا ، حوالي عام ٥٦٥ ق•م• فلما دب الانقسام في أثينا بين الحكام ترأس هو فريقا أو حزبا ثالثا ضم اليه المعتقين والمدقعين ثم نصب نفسه طاغية بحرس منحه اياه الشعب ، عام ٥٦١ ق•م• غير أن أعداءه تحالفوا عليه فطردوه من الحكم بعد أن ظل يمارسه زهاء خمس سنوات ، فلم يستتب له الاستبداد به الا بعد أن رجع وانتصر عليهم انتصارا حاسما عام ٥٤٦ ق•م• مات عام ٥٢٧ بعد مرض • هذا ولقد حرص بيستراتس على الالتزام بدستور صولون فلم يذهب الى حد مصادرة أملاك النبلاء وتوزيعها بالتســاوي ولكنه شجع صغار الملاك بتيسير القروض لهم وعمل على ازاحة البطالة من الريف معتمدا في هذه السياسـة على الضرائب المفروضة على الانتاج والتجارة في وقت ازدهرت فيه صناعة الخزف وانتشرت في كل بلاد اليونان • جمل أثينا وجمع أشعار هوميروس ونشرها • وكان من نتائج حكمه الطويل أن أضعف قبضة النبلاء على أشباعهم وشجع ظهور الفردية في كثير من المجالات مما مهد الطريق لعودة الديموقراطية بعد أن تخلص الشعب من أبنائه •

عليه الأعداء من كل جانب ولها فكره عن كل شيء الا عن الخطر الحاضر فرفع ديونيسيوس الى الرياسة دون نظر الى المستقبل وأسند اليه قيادة الجيش ولم يدرك الى أى حد قواه الا حين رجع هذا الداهيــة منتصرا كأنه قد غزا مواطنيه لا أعداءهم فتسمى باسم القائد ثم بالملك المطلق (١) . وأنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه يسقط فجأة فى هاوية من النسيان العميق لحريته الى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها ويجعله يسرع الى الخدمة صراحة وطواعية حتى ليهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كســب عبوديته . صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة فى أول الأمــر الا جبرا وخضوعا للقوة ولكن من يأتون بعدهم يخدمون دون أن يساورهم أسف ويأتون طواعية ما أتاه السابقون اضطرارا . ذلك أن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق ثم أطعموا وتربوا فى ظل الاسترقاق دون نظر الى أفق أبعد يقنعون بالعيش مثلما ولدوا . ثم أنه لما كان التفكير فى حال مختلفة أو فى حق آخر لا يطرأ على بالهم ، فهـــم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعى . ومع هذا فمــا من وارث ألا نظر أحيانا فى مستندات أبيه ليرى هل يتمتع بحقوق تركته كاملة أم أن غبنا قد أصابه أو أصاب سلفه . لكن لا شــك أن العادة مع سيطرتها علينا فى كل مجال لا تظهر قوة تأثيرهــا مثلما تظهر حين تلقننا العبودية وحين تعلمنا ، مثلما قيل عن ميثريدات

(١) ديونيسيوس بين ٤٣٠ و ٣٦٧ ق.م. تقريبـــا . فى عام ٤٠٦ أخفقت سيراقوصة فى تحرير اجريجنتا من قبضة القرطاجنيين فتسنى له اقناع مجلس الشعب بانتخاب قواد جدد بينهم هو . ثم لم يلبث أن أزاح زملاءه وتزود بحرس خاص وظل انتخابه على رأس الدولة يتكرر تكررا منتظما . سوى أنه أخفق فى وقف تقدم القرطاجنيين وواجه ثورة ارستوقراطية جعلته يقبل صلحا باهظا مع قرطاجنة . فلما تغلب على المعارضة الداخلية عاد الى محاربتها حتى انتصر عليها وصد غزواتها المتعددة . ثم بعدئذ وسع سلطاته على الجزء الغربى من صقلية وعلى ايطاليا حتى امتد نفوذه الى الأدرياتيك . كان ديونيسيوس طاغية من الطراز الأول اتسم حكمه بمزيج من البأس والحنكة والأبهة لا زال يثير العجب حتى اليوم .

الذى صار السم عنده شرابا مألوفا (١) ، كيف نجرع سم الاسترقاق دون الشعور بمرارته • لا جدال فى أن للطبيعة نصيبا كبيرا فى توجيهنا حيث تشاء وأننا نولد على ما تدخره لنا من فطرة حسنة أو سيئة ، ولكن لا مناص من التسليم بأن سلطانها علينا يقل عن سلطان العادة لأن الاستعداد الطبيعى مهما حسن يذهب هباء اذا لم نتعهده ، فى حين أن العادة تفرض علينا صوغها أيا كان هذا الاستعداد • فالبذور التى تنثرها فينا يد الطبيعة ضئيلة واهية الى حد لا يجعلها تحتمل أقل غذاء منافر لها ، فرعايتها لا تتم بمثل السهولة التى تتبدد بها وتفنى ، شأنها شأن أشجار الفاكهة : كل شجرة منها لها طبيعتها التى تؤتى بمقتضاها ثمارها اذا تركتها ولكنها تخرج عن طبيعتها وتؤتى ثمارا غريبة غير ثمارها اذا طعمتها • كذلك الأعشاب : كل عشب له خاصيته وطبيعته وتفرده ولكن البرد والجو ثم التربة ويد البستانى تعين نموه كثيرا أو تعوقه كثيرا حتى أن النبات الذى نراه فى قطر لا نكاد نعرفه فى قطر آخر • تخيل رجلا رأى أهل مدينة البندقية ــ وهم قلة من الناس يعيشون أحرارا حتى ليأبى أقلهم جاها أن يتوج ملكا على جميعهم ، ولدوا ونشأوا على ألا يعرف أى منهم مطمعا الا الادلاء بأحسن النصح من أجل الحفاظ على الحرية والسهر عليها ، تربوا منذ المهد وتشكلوا على ألا يمدوا

---

(١) المراد ميثريدات السادس ملك بونطوس جنوب البحر الأسود • حكم بين ١٢٠ و ٦٣ ق•م• ازدحمت حياته بالأحداث العاصفة • أولها مصرع أبيه ووصية تدعو الى الارتياب يستخلف فيها زوجته وولديه الأصغرين • فر من أمه وظل هاربا حتى عاد فجأة الى العاصمة سينوب فحبس أمه وقتل أخاه وتزوج أخته • ثم استأنف سياسة والده التوسعية فاستولى على معظم آسيا الصغرى وامتدت فتوحاته الى اليونان حيث رده الرومان • وقعت بينه وبينهم عدة حروب انتهت باستيلائهم على بونطوس وثورة الرعية وعلى رأسها ابنه فارناسس • فلما أراد الانتحار تبين أن نظاما من الوجبات الوقائية قد جعل له مناعة ضد السم • فمات بسيف حارس من حراسه وقد بلغ من العمر ٦٩ عاما • لا شك أن ميثريدات كان =

أيديهم الى سائر نعم الأرض مجتمعة عوضا عن ذرة من حريتهم (١) — أقول تخيل رجلا رأى هؤلاء القوم ثم ذهب بعد أن غادرهم الى أراض ينشر عليها سلطانه من لقبنـــاه بملك زمانه (٢) ، أراض يرى فيها

= أصلب أعداء روما عوْدا فى مكره وشجاعته وقدرته على تعبئة الجيوش وتنظيمها ، ولكنه خلا من المهارة فى التخطيط وعجز عن الاحتفاظ بولاء رعيته . ثم هو فى النهاية لم يكن يمثل تمثيلا صادقا لا اليونانيين الذين كان يميل اليهم ويحب التشبه بهم (تدل صوره على تقليد الاسكندر) ولا الايرانيين الذين كان يتكون منهم العنصر الغالب بين أبناء شعبه .

(١) كان مثقفو عصر النهضة يرون فى جمهورية مدينة البندقية المثل الأجمل للحرية حتى أن لابوينسيه كان يؤثر لو ولد بها ، على ما يخبرنا به صديقه مونتنى (المقالات ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٨) . ولكن الحقيقة هى أن الأمر كان له وجهان . فالبندقية شأنها شأن جميع المراكز العمرانية الكبرى التى يؤمها التجار والصيارفة وصانعو الثروات من كل حدب وصوب كانت تتمتع فعلا بحرية اجتماعية واسعة تتيح تجاوز الجميع على اختلاف عاداتهم وأزيائهم . أما من الناحية السياسية فقد احتكرت الحكم فيها منذ القرن الرابع عشر طبقة من الأعيان ذوى الثروات الطائلة انقطعت صلتها بالشعب (وأعنى بالأخص الحرفيين الذين كان لهم على العكس دور مهم فى فلورنسه) وان حرصت على ألا ينفرد به واحد منهم . لهذا أسندت السلطة الى مجلس العشرة . هذا المجلس الذى ندر أن حاذاه جهاز فى اتجاهه المحافظ هو الذى كان يقوم بانتخاب الدوج المنوط به تجسيد قوة البندقية ولكن مع قيود ترمى جميعها الى تخفيف دوره الشخصى .

(٢) سلطان تركيا . تنبه الى أن الشعوب الأوروبية كانت تتسمى فى القرن الثالث عشر باسم المسيحية أو بلاد المسيحيين ، وهى تسمية كانت تصدر عن الشعور بالوحدة الدينية التى بثته فيها الحروب الصليبية . وفى القرن الخامس عشر ظهرت التسمية باسم أوروبا أو الشعوب الأوروبية . لا لأن هذه الشعوب كانت قد تحققت بينها وحدة سياسية ، فقد حدث العكس : صارت فكرة الامبراطورية الواحدة أو الشاملة ادعاء لا صلة له بالواقع بينما بدأ ظهور الدول الحديثة بانقسام الشعوب الأوروبية الى ممالك يحكم كل منها ملك غيور على استقلاله ، كما تدل عليه العبارة الجارية اذ ذاك : « كل ملك امبراطور على مملكته » . الا أن هذه الشعوب كان يبدو لها أن ملوكها هؤلاء وولاة الأمر فيها كانت لهم فيما بينهم وفى =

أناسا لا يولدون الا لخدمته ولا يعيشون الا لدوام قوته ، ترى هل يظن أن هؤلاء وأولئك من عجينة واحـدة أم أن الأرجح أنه سـوف يعتقد أنه قـد ترك مدينة آدمية ودخـل حظيرة للدواب ؟ يحكى أن ليكورج (مشرع اسبرطة (١)) قد ربى كلبين خرجا من بطن واحد ورضعا ذات الثدى ، فجعل أحدهما يسمن فى المطابخ وترك الآخر يجرى فى الحقول وزاء أبواق الصيد • فلما أراد أن يبين لشـعب لاسيدومونيا أن الناس هم ما تصنع بهم تربيتهم جاء بالكلبين وسط السوق ووضع بينهما حساء وأرنبا ، فاذا أحدهما يجرى الى الطبق والآخر وراء الأرنب • فقال ليكورج : ومع هذا فهما أخوان ! هـكذا نجح بفضل قوانينه ودستوره فى أن ينشىء سكان لاسيدومنيا تنشئة جعلت كلا منهم يفضل الموت ألف ميتة على أن يختار لنفسه سيدا آخر سوى القانون والعقل •

ويطيب لى هنا أن أتذكر حديثا جرى فى قديم الزمان بين أحد المقـربين الى اكسركس ملك فـارس الأعظـم وبين رجـلين من

= تعاملهم منها قواعد تختلف عما يتبعه طغاة الشرق ، ومنه كان ظهور التسمية الجديدة ينطوى على تعريف الغرب لنفسه بالحرية السياسية ـ اضف اليه تقوى الشعور بالوحدة الثقافية ثم حاجة التمييز الجغرافى بالنسبة الى الارض المكتشفة حديثا ، وأعنى بها القارة الأمريكية • فأما نصيب هذا التعريف من الصحة أو الكذب فهذا ما يستحق أن يفرد له مبحث خاص •

(١) ليكورج مشرع نسب اليه الاسبرطيون دستورهم ونظامهم السياسى والاجتماعى وظلوا حتى منتصف القرن الرابع ق٠م٠ يوجهون اليه من مظاهر التبجيل ما لا يحظى به الا الآلهة • أما العصر الذى عاش فيه فهذا ما اختلفت فيه الروايات اختلافا تفاوت بين القرنين التاسع والسادس ق٠م٠ هذا الاختلاف وهذا التبجيل المفرط جعل بعض الكتاب ينحون الى الشك فى وجوده محتجين أيضا بأن الكثير من سمات نظامه تشبه السنن القبلية البدائية • ولكن معظم الثقاة يتفقون على أن قواعد النظام الاسبرطى قد أرسيت فى القرن السابع ق٠م٠ وأنه ما من حجة تمنع الاعتقاد بأن ارساءها هذا كان من صنع مشرع واحد عظيم •

لاسيدومونيا (١) • أخذ اكسركس ، وهو يعد جيشه الضخم لغـزو اليونان ، يبعث رسله الى المدن اليونانية يطلبون اليها الماء والتراب : وهو تعبير كان يستخدمه الفرس اشـارة الى أنهم يأمرون المـدن بالاستسلام • الا أثينا واسبرطة ، فقد تجنب أن يرسل اليهما أحدا • ذلك أن الأثينيين والاسبرطيين كان قد سبق لهم أن أمسكوا بسفراء أبيه داريوس فزجوا بعضهمفي الحفر والبعض الآخر في الآبار قائلين : خذوا ما تريدون من الماء والتراب ! كانوا قوما لا يطيقون ولو كلمة تمس حريتهم • غير أن الاسبرطيين بعد أن صنعوا هذا الصنيع أدركوا أنهم قد جروا على أنفسهم غضب الآلهة وغضب تالثيبيوس ، الـه الرسل ، بنوع خاص ، فقرروا أن يرسلوا الى اكسركس مواطنين من بينهم ليمثلا بين يديه وليصنع بهما ما يشاء انتقاما لمن قتل من رسل أبيه • فتطوع رجلان ليدفعا هذا الثمن ، اسم احدهما سبرثيوس واسم الآخر بولس • وبينما هما في الطريق صادفا قصرا يملكه رجل فارسي اسمه هندران ، كان الملك قد عينه واليا على جميع المـدن الواقعة على الساحل ، فرحب بهما أكرم ترحيب وأطعمهما بغـير حساب ثم سألهما بعد أن أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث لم يرفضان الى هذا الحد صداقة الملك ؟ قال : «أنظرا الى أيها الاسبرطيان واتخذا مني مثلا تعلمان منه كيف يعرف الملك تشريف من استحق وتذكرا أنكما لو صرتما بين أتباعه لرأيتما من صنيعه ما رأيت وأنكما لو دنتما له بالطاعة وعرف أمر كمـا لما خرج كلاكما عن أن يكون أميرا لمدينة من مدن اليونان » • فأجابه محدثاه : « لهذا يا هندران لأمر لا تملك فيه أسداء النصح الينا لأنك حربت النعمة التي تعدنا بها ولكنك لا تعلم شيئا عن نعمتنا ؛ لقد ذقت حظوة الملك وأما الحرية

---

(٦) ورد اسم لاسيدومونيا في هوميروس مرادفا لاسبرطة • ثم غلبت دلالته الجغرافية والسياسية اذ اطلق على هذه المدينة والريف التابع لها بما هي جميعها وحدة سياسية • بينما تكثفت حول اسبرطة مستدعيات تاريخية شـعرية فلم يستخدم اسمها أبدا للدلالة على الأرض دون المدينة •

فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبته ، ولو فعلت لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع بل بالأسنان والأظافر » • هذا الجواب وحده هو الصدق ، ومع هذا فلا شك أن ثلاثتهم تحدثوا وفاقا لنشأتهم ، فما كان للفارسي أن يستشعر الأسف على الحرية وهو لم ينلها قط ولا للاسبرطي أن يحتمل التبعية بعد أن ذاق الحرية •

وكان كاتو الأوتيكي (١) وهو بعد طفل تحت الوصاية كثير التردد على منزل الدكتاتور سيلا (٢) ، يروح ويجيء متى شاء لا يصد الباب في وجهه أبدا لكرم محتده ولما كان بينه وبين سيلا من أواصر القرابة • وكان معلمه يصحبه في كل زيارة على ما جرت به العادة اذ ذاك مع أبناء الأسر العريقة • ولم يلبث أن تبين له أن مصائر الناس تحسم بتلك الدار بمحضر من سيلا نفسه أو بأمره : البعض يسجن والبعض يدان ، هذا ينفي وهذا يشنق ، هذا يطالب بمصادرة أملاك أحد المواطنين وذاك يطلب رأسه • تبين له بالاختصار أن الأمور لا تجرى على ما ينبغي لدى مسؤول أعملته المدينة بل لدى طاغية استبد بالشعب وأن المكان لم يكن ساحة للعدل بل مصنع للطغيان • عندئذ قال الفتى لمعلمه : « أنى لى بخنجر أدسه تحت ردائي فاني كثيرا ما أرى سيلا في حجرته قبل أن يستيقظ وان

(١) كاتو (٩٥ ــ ٤٦ ق٠م٠) أحد كبار رجال الدولة الرومانية فى أواخر عهد الجمهورية • عرف بصرامته وبانتصاره الذى لا يلين للمبادىء • انضم الى بومبى حين قامت الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر • وانتهت به تقلبات هذه الحرب بأن حاصرته قوات قيصر وهو بأوتيكا (مدينة على الساحل الأفريقى لا تبعد عن قرطاجنة) حيث مات موتا مشهودا ممزقا أحشاءه بيديه ــ كما ورد فى سير الأعلام لبلوتارك •

(٢) سيلا (١٣٨ ــ ٧٨ ق٠م٠) هو أول قائد رومانى استغل قوته بين العسكر فاستحوذ على زمام الدولة مستهدفا تقوية الجمهورية فيما يبدو • ولكنه فى الواقع انما رسم المثل الذى احتذاه بعد ذلك من هدموها • بلغ من امعانه فى مصادرة الأموال والنفى والاغتيال أن عم الخوف مناصريه أنفسهم •

بساعدى لقوة تكفى خلاص المدينة منه» . هذه حقا كلمة تليق برجل من معدن كاتو ، وهكذا بدأت حياة هذا البطل الذى مات كريما مثلما عاش كريما . ومع هذا هب أنك لم تذكر الاسم ولا البلد مكتفيا بذكر الواقعة كما هى : لا شك أن الواقعة سوف تتحدث عندئذ عن نفسها بنفسها ، لسوف يستدل السامع منها أن قائل هذا القول رومانى ولد بأحضان روما حين كانت روما مدينة حرة . لم أقول ذلك ؟ طبعا لا لأنى أظن أن البلد أو الأرض يضيفان الى الشىء ما ليس فيه ، فالعبودية مرة بكل قطر وجو والحرية عزيزة ، ولكن لانى أرى أن من سبق النير مولدهم جديرون بالرثاء ، فواجبنا عذرهم أو الصفح عنهم اذا كانوا لا يرون ضرا في عبوديتهم ما داموا لم يروا ولو ظل الحرية ولا سمعوا عنها قط . فلو كان ثمة بلد كبلد السمريين (١) فيما يقول هوميروس ، بلد لا تشرق عليه الشمس شروقها المألوف علينا وانما بعد أن تفيض عليهم بنورها ستة أشهر متوالية تتركهم نياما في الحلكة خلال النصف الآخر من السنة : من ولدوا في غياهب هذا الليل الطويل اذا كانوا لم يسمعوا البتة أحدا يتحدث عن الضوء، هل نعجب لو أنهم ألفوا الظلمات التي ولدوا فيها دون أن يستشعروا الرغبة فى النور ؟ انا لا نفتقد ما لم نحصل عليه قط وانما يأتى الأسف فى أعقاب المسرة ودوما تأتى ذكرى الفرح المنقضى مع خبرة الألم . أجل أن طبيعة الانســـان أن يكون حرا وأن يريد كونه كذلك ولكن من طبيعته أيضا يتطبع بما نشأ عليه .

---

(١) السمريون (وبالآشورية الجمريون الوارد ذكرهم فى التوراة ، سفر التكوين) شعب أقام على شواطىء البحر الأسود حيث الاتحاد السوفييتى الآن ثم طرده السكيثيون فغار على آسيا الصغرى مقوضا عروشها ناشرا الذعر فى ربوعها الى أن قضت عليه شيئا فشيئا الأوبئة وحروبه ضد الليديين والآشوريين . ولكنه يرد في الألياذة للدلالة على شعب أسطورى يستوطن أبعد بقاع المعمورة حيث لا تشرق الشمس أبدا ، واليه قصد أو ليس بغية استحضـــار الموتى واستفسار العريف ثيريسياس الذى كان ينسب اليه العلم بالغيب . الراجح أن لابويسية يلمح هنا إلى أسطورة أهل الكهف عند أفلاطون .

لنقل اذن أن ما درج الانسان عليه وتعوده يجرى عنده بمثابة الشيء الطبيعي ، فلا شيء ينتسب الى فطرته سوى ما تدعوه اليـه طبيعته الخالصة التي لم يمسسها التغير • ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة : كشأن الجياد الشوامس تعض الحكمة بالنواجذ في البدء ثم تلهو بها أخيرا وبعد أن كانت ترجم ولا تكاد تستقر تحت السرج اذا هي الآن تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهي تتبختر في دروزها ، تقول انها كانت منذ البدء ملكا لمالكهـا وان آباءها عاشت كذلك وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الالزام وبمر الزمن تدعـم هي نفسـها امتلاك طغاتها اياها • ولكن الحقيقة هي أن السنين لا تجعل أبدا من الغبن حقا وانما تزيد الاساءة استفحالا (١) • آجلا وعاجلا يظهر أفراد ولدوا على استعداد أحسن يشعرون بوطأة الغل ولا يتمالكون عن هزه هزا ولا يرضون أنفسهم أبدا على التبعية والخضوع بل هم مثلهم كمثل أوليس وهو يجتاب الأرض والبحر عساه يرى الدخان الذى يصعد من داره لا يمسكون قط عن التفكير في حقوقهم الطبيعية وعن تذكر من تقدموهم وتذكر وضعهم الأول • أولئك هم الذين اذ ملكوا فهما نافذا ورأيا بصـيرا وانصقلت عقولهم لم يكتفوا كما يفعل العامة بالنظر الى مواطيء أقدامهم دون التفات الى ما أمامهم وما وراءهم ودون أن يتذكروا وقائع الماضي ليسترشدوا بها في الحكم على المستقبل وسبر الحاضر • أولئك هم الذين استقامت أذهانهم بطبيعتها فزادوها بالدراسة والمعرفـة تهذيبا • أولئك لو أن الحرية أمحت على وجه الأرض وتركتها كلها لتخيلوها وأحسوا بها في عقولهم وتذوقوها ذوقا ولم يجدوا للعبودية طعما مهما تبرقعت •

---

(١) يتضمن النص هنا رأيا قانونيا يدحض الرأى القائل بان أساس الحق هو العادة أو العرف • وتتأيد هذه الدلالة اذا تنبهنا الى ان الكلمة الفرنسية التي ترجمناها بالغبن تعني حرفيا ، اذا رجعنا الى اشتقاقها ، انتفاء الحق أو عدمه •

لقدأدرك قراقوش الترك (١) هذا الأمر أحسن ادراك : أدرك أن الكتب والثقافة الصحيحة تزود الناس أكثر من أى شىء آخر بالحس والفهم اللذين يتيحان لهم التعارف والاجتماع على كراهية الطغيان ، دليل ذلك خلو أرضه من العلماء وبعده عن طلبهم ؛ وفى سائر الأرض بوجه عام تظل حماسة من أخلصوا قلوبهم للحرية وتظل محبتهم دون أن يكون لهما أثر مهما كثر عددهم لانقطاع التواصل بينهم : فالطاغية يسلبهم كل حرية : حرية العمل وحرية الكلام ولو أمكن فحرية الفكر ، فاذا هم منفردون منعزلون كل فى تخيله ٠ وعليه فما بالغ الآله الساخر مموس (٢) فى سخريته اذ شهد الانسان الذى صنعه فولكان (٣) فنصحه أن يضع أيضا بقلب صنيعه نافذة صغيرة لكى تتسنى رؤية أفكاره من خلالها ٠ ولقد قيل ان بروتوس وكاسيوس (٤) حين شرعا فى تحرير روما أو بالأصدق فى تحرير العالم أجمع أبيا أن يشركا شيشرون وهو المدافع المنقطع النظير عن المصلحة العامة فيما عقدا العزم عليه اذ كان من رأيهما أن قلبه أضعف من أن يثبت فى هذا الموقف العصيب ، كانا يثقان فى صدق اراداته دون أن يضمنا شجاعته ٠ وان لفى وسع من أراد استقراء وقائع الماضى وسجلات التاريخ أن يتحقق أن من رأوا بلدهم تساء سياسته وتستحوذ عليه أياد

(١) التعبير الفرنسى ترجمته الحرفيــة التركى الكبير ولكنــه ينطوى على استخفاف ، ثم ان حامله كان يعد الرمز الأول للطغيان ٠ ولا يكذب كلام لابويسيه هنا وان لم يكف فى تأييده ما يخبرنا به الدكتور ابراهيم سلامة فى رسالته المقدمة الى السوربون عام ١٩٣٩ عن التعليم الاسلامى فى مصر من أثر سياسة الأتراك فى القضاء على المدارس ٠

(٢) هذا الاله الساخر شخصية مسرحية أكثر منه خلق أسطورى ٠

(٣) فولكان اله النار والحدادة ٠ هيفايستوس عند اليونان ٠

(٤) بروتوس وكاسيوس قاتلا يوليوس قيصر ٠

جانية فعقدوا العزم على تحريره بنية صـادقة مستقيمة لا تردد فيها
قل ألا يحالفهم النجاح وأن الحرية تساندهم في الدفاع عن قضيتها ٠
أنظر هـارموديوس وأرسطجيتون وثراسـيبول وبروتوس الأقدم
وفالريوس وديون (١) : لقد كان عملهم ناجحـا مثلما كان فكرهم
فاضلا لان الحظ لا يكاد يتخلى أبدا في مثل هذه القضية عن مناصرة
الارادة الطيبة ٠ كذلك نجح بروتوس الأصغر وكاسيوس في رفع
العبودية وان كانا اذ استرجعا الجمهورية قد خسرا الحيـاة خسارة
لا تحط من شأنهما (فـأى سبة هذه أن تنسـب الحطة الى أمثـال
هؤلاء القوم سـواء في الحياة أو في الممات !) بل خسـارة عانت
منها الجمهورية أكبر الضرر وعـانت البؤس أبد الدهر واندثرت
اندثارا كأنها قد دفنت بدفنهما ٠ فأما مـا تـلا ذلك من الحركات
الموجهة ضد الأباطرة الرومـانيين فلم تكن الا مؤامرات حاكهـا قوم
طامحون لا يستحقون الرثاء على سوء مآلهم فقد كان من الواضح
أن مطلبهم لم يكن تقويض العرش بـل زحزحة التاج ، مدعين طرد
الطاغية مع الابقاء على الطغيان ٠ هؤلاء قوم مـا كنت نفسى أود لهم
نجاحا وانه ليسرنى أنهم قد ضربوا بأنفسـهم المثل على أن اسـم
الحرية المقدس لا يجوز استخدامه مع اعوجاج القصد ٠

ولكنى لكى أعود الى موضوعنا الذى كاد يغيب عن نظرى أقول
ان السبب الأول الذى يجعـل الناس ينصاغون طواعية للاستعباد

---

(١) هارموديوس وأرسطوجيتون شابان أرادا قتل هيبياس الذى تولى حكم أثينا مع أخيه بعد موت أبيهما بيسيتراتوس ولكنهما أخفقا وماتا شر ميتة ٠ رأى الأثينيون في موتهما استشـهادا وأشادوا بذكرهما ملقبين اياهما بلقب مانحى الايسومونيا ـ وهو المساواة أمام القانون ٠ أما بروتوس الأقدم وفالريوس فكانا بين مؤسسى الجمهورية الرومانية ٠ أما ديون فكان صهرا لديونيسيوس الأول الذى سبق ذكره ٠ أراد أن يجعل من ابنه ديونيسيوس الثانى ملكا فيلسوفا متأثرا في ذلك بعلاقته بأفلاطون والأكاديمية ٠ فلما أخفق خلص البلد منه ولكن زمام الأمور أفلت من يده فاشتد وتعسف رغم ادعائه الاستناد الى المبادىء الفلسفية حتى قتل بدوره ٠

هو كونهم يولدون رقيقا وينشأون كذلك . الى هذا السبب يضاف سبب آخر : أن الناس يسهل تحولهم تحت وطأة الطغيان الى جبناء مخنثين . انى أشكر أبا الطب هيبوقراط اذ فطن الى ذلك وعبر عنه أحسن تعبير فى كتابه المعلى عن الأمراض . لقد كان هذا الرجل يملك يقينا فى جميع أحواله قلبا يزخر بالمروءة ، أبدى ذلك حين أراد ملك الفرس اجتذابه بالعطايا والهدايا الفخمة فأجابه صراحة أنه لن يسلم من وخذ الضمير اذا هو اشتغل بعلاج الأجانب الذين يريدون موت الأغريق وراح يخدمه بفنه بينما هو يريد اخضاع بلادهم . ولا يزال خطابه المرسل الى ملك الفرس ماثلا الى يومنا هذا بين سائر كتاباته ، يشهد بمدى الدهر على قلبه الطيب وطبيعته النبيلة . من المحقق اذن ، أن الحرية تزول بزوالها الشهامة . فالقوم التابعون لا همة لهم فى القتال ولا جلد ، انهم يذهبون الى الخطر كأنهم يشدون اليه شدا ، أشبه بنيام يؤدون واجبا فرض عليهم ، لا يشعرون بلهب الحرية يحترق فى قلوبهم ، هذا اللهب الذى يجعل المرء يزدرى المخاطر ويود لو اكتسب بروعة موته الشرف والمجد بين أقرانه . ان الأحرار يتنافسون كل من أجل الجماعة ومن أجل نفسه وينتظرون جميعا نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار ، أما المستعبدون فهم عدا هذه الشجاعة فى القتال يفقدون أيضا الهمة فى كل موقف وتسقط قلوبهم وتخور وتقصر عن عظيم الأعمال . وهذا أمر يعلمه الطغاة جيدا ، فهم ما أن يروا الناس فى هذا المنعطف الا عاونوهم على المضى فيه حتى يزيدوا استنعاجا .

لقد وضع كسينوفون (١) ، وهو مؤرخ جاد من أئمة المؤرخين

---

(١) عاش كسينوفون بين ٤٣٧ و ٣٥٤ ق.م. وضع كتبا كثيرة ربما كان أشهرها دفاعه عن سقراط . انفرد باهتمامه بالقضايا المالية والاقتصادية . أما الكتاب الذى كتبه فى شكل حوار كما ينبغى لرجل تتلمذ على سقراط فيشير عنوانه هيرون الى طاغية فتح بلاطه للشعراء والفلاسفة بينما زادته انتصاراته فى الألعاب صيتا على صيت . مات عام ٤٦٧/٦ ق.م. وكان سيمونيد ، وهو طاغية آخر حكم جزيرة رسيوس ، قد زاره بسيراقوصة عام ٤٧٦ ق.م.

اليونانيين ، كتابا تخيل فيه حوارا بين سيمونيد وبين طاغية سيراقوصة هيرون حول كروب الطاغية • هذا الكتاب ملىء بنظرات نقدية طيبة جادة وان اتسمت مع ذلك فى رأيى بأقصى ما يمكن من اللطف • ليت طغاة الأرض وضعوا هذا الكتاب نصب أعينهم أنى وجدوا لتكون لهم منه مرآة لهم ! فلو فعلوا لتبينوا رذائلهم ولأخجلتهم مساعيهم • فى هذا الحوار يصف كسينوفون كرب الطغاة اذ يضطرهم الأذى الذى يلحقونه بالناس جميعا الى خشيتهم جميعا قائلا بين ما يقول ان الملوك الفاسدين يستخدمون المرتزقة الأجانب فى شن الحروب فرقا من ترك السلاح فى أيدى رعاياهم الذين أمعنوا فى غبنهم • (هذا وان يكن من الصحيح أن التاريخ قد شهد بين الفرنسيين أنفسهم وفى الماضى أكثر منه فى الحاضر ملوكا صالحين جندوا جيوشا من الأمم الأجنبية لا عن حذر بل حرصا على بنى وطنهم وتقديرا منهم أن خسارة المال يبخس ثمنها فى سبيل صيانة الأرواح عملا بما يسند الى سيبيون ، وأظنه الافريقى (١) ، من قوله أنه يفضل لو أنقذ مواطنا على أن يدحر ألف عدو) • لكن الشىء المحقق هو أنه ما من طاغية يظن أبدا أن السلطان قد استتب له الا أن يبلغ تلك الغاية التى هى تصفية المأمورين بأمره من كل رجل ذى قيمة ما • بحيث يحق لنا أن نوجه اليه التقريع الذى يفخر تيراسون فى احدى مسرحيات تيرانس بتوجيهه الى مروض الأفيال :

الأنك تأمر الأنعام ، تجرؤ هذه الجرأة (٢) ؟

بيد أن هذا التحايل من قبل الطغاة على التغرير برعاياهم لا يمكن أن يتجلى على نحو يفوق تجليه فيما صنع كسرى ازاء الليديين (٣) اذ دحرهم واستولى على عاصمتهم سارد وأسر كريسوس

(١) حمل كثير من رجال الدولة الرومانية اسم سيبيون • لقب أحدهم بالافريقى لأنه فتح افريقية •

(٢) من مسرحية الخصى ، الفصل الثالث ، المشهد الأول •

(٣) المراد كسرى الأكبر الذى أسس الامبراطورية الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد وليديا من ممالك آسيا الصغرى •

ملكهم الذى ضربت بثرائه الأمثال وعاد به الى بلاده فبلغه أن أهل سارد قد ثاروا • وكان يسعه سحقهم الا أنه رغب عن تدمير مدينة فاق جمالهـا الأوصـاف ثم هـو لم يكن يريد أن يجمـد بها جيشـا لحراستها • فتفتق ذهنه عن حيلة كبيرة توصل بها الى مأربه : فتح دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية ونشر أمرا يحض السكان على الاقبال على هذا كله • فكانت له من هذه الحيلة حامية أغنته الى الأبد عن أن يسل السيف فى وجه الليديين • فقد انصرف هـؤلاء المساكين البؤساء الى التفنن فى اختراع الألعاب من كل لون وصنف حتى أن اللاتينيين اشتقوا من اسمهم الكلمة التى يدلون بها على اللهو فقالوا لودى وكأنهم يريدون أن يقولوا ليدى • صحيح أن الطغاة لم يعلنوا جميعا عما يسعون اليـه من تخنيث الشـعوب • ولـكن ما فعله هذا صراحة يتوخاه معظم الآخرين خفية • والحقيقة هى أن تلك طبيعة العامة الذين تضم المدن القسط الأوفر منهم ، فهم شكاك فيمن أحبهم ، سذج حيال من خدعهم • فلا تظنن أن ثمـة عصفورا يسهل اقتناصه بالصفافير (١) أو سمكة تهرع الى الطعم بمثـل العجلة التى تسرع بها الى العبودية كل الشعوب منجذبة ، كمـا نقول ، بأقل زغبة تقرب فاها • وانه لأمر عجيب أن تراها تندفع هذا الاندفاع ، يكفى فيه مجرد زغزعتها • المسارح والألعاب والمساخر والمشاهد والمصارعون والوحوش الغريبة والميداليات واللوحات ، هذه وغيرها من المخدرات كانت لذى الشعوب القديمة طعم عبوديتها وثمن حريتها وأدوات الاستبداد بها • هذه الوسيلة وهذا المنهج وهـذه المغريات هى ما تذرع به الطغاة القدامى حتى تنام رعيتهم تحت النير • هكذا تأخذ الشعوب المخدوعة اذ تروق لها هذه الملاهى وتتسلى بلذة باطلة تخطف أبصارها فى تعود العبودية بسذاجة تشبه سذاجـة الاطفال الذين تخلب لبهم الكتب المصورة فيحاولون فك حروفها ولكن

---

(١) طريقة فى اصطياد العصافير تقوم فى استدراجها بالصفير لها على نحو معين •

بتخبط أكبر • واكتشف الطغاة الرومانيون اكتشافا آخر فوق هذا كله : موائد العشرات (١) يكثرون من الدعوة اليها في الأعيـــاد تمويهـا على هؤلاء الرعاع الذين لا ينقادون لشيء مثلما ينقادون للذة الفم والذين ما كان يستطيع أشدهم مكرا واقربهم الى أسماعهم أن يترك وعاء حسائه ليسترجع حرية جمهورية افلاطون • كان الطغـاة يجودون برطل من القمح ونصف لتر من النبيذ وبدرهم وكان أمرا يدعو الى الحسرة أن يعلو عندئذ الهتاف : عاش الملك ! فما كان يخطر على بال هؤلاء الأغبياء أنهم انما كانوا يستردون جزءا مما لهم ، وحتى هذا الجزء ما كان الطاغية ليجود به عليهم لولا سبقه الى سلبهم اياه • من يلتقط اليوم الدرهم ويأكل حتى التخمة مسبحا بحمد تيبريوس ونيرون وبسخاء عطائهما لا ينبس بحرف يزيد عما ينبس به الحجـر ولا تصدق عنه خلجة تزيد عما يصدر عن الجذع المقطوع حين يرغم غدا على أن يترك أملاكه لجشع هـؤلاء الأباطـرة المفخمين وأطفـاله لشهواتهم ، لا بل دمه نفسه لقسوتهم •. ذلك كان شأن الشـعب الجاهل دائما : مفتوح الذراعين مستسلما للذة التي كانت الأمانة تقضي بالامساك عنها ، فاقد الاحساس بالغبن والألم اللذين كانت الأمانة تستدعي الشعور بهما • انى لا أرى اليوم أحدا يسمع حديثـا عن نيرون الا ارتعد لمجرد ذكر اسم هذا المسخ الكريه ، هذا الوباء الشنيع القذر الذى لوث العالم أجمع ، ومع هذا فلا سبيل الى انكار أن هذا السفاح ، هذا الجلاد ، هذا الوحش الضارى حين مات ميتة لا تقل خزيا عن حياته (٢) قد أثار بموته هذا حزن الشعب الروماني النبيل الذى راح يتذكر ألعابه وولائمه حتى أوشك على الحداد ــ هذا ما كتبه كورنيليوس تاسيت ، وهـو مؤلف جـاد محقق فى طليعة من يوثق

(١) موائد يلتف حولها أفراد الشعب عشرة حول كل مائدة •

(٢) فرنيرون من روما بعد أن تمرد عليه حكام الأقاليم ولفظه الشعب بجميع طبقاته ، فلما لحق به مطاردوه انتحر فى مخبئه ، وهو يولول غير مصدق لما يحدث له ، هكذا كان مبلغ فتونه بنفسه •

بهم (١) ٠ ولا أظننا سنعجب لذلك كثيرا اذا تذكرنا ما صنعه هذا الشعب من قبل حين مات يوليوس قيصر الذى استهان بالقوانين وبالحرية معا والذى لا أرى فى شخصه مزية ما لأن انسانيته التى كثر الحديث عنها فى كل معرض ومقام كانت أبلغ ضررا من قسوة الوحوش الضارية ، فالحقيقة هى أن هذه الحلاوة المسمومة هى التى سكرت طعم العبودية لدى الشعب الرومانى ، ولكنه ما أن مات حتى شرع هذا الشعب ولما تزل ولائمه بفمه وعطاياه بذاكرته فى تكريمه وتكديس المقاعد المنتثرة فى الميدان العام ليوقد منها النار التى تحوله ترابا ثم بنى له نصبا تذكاريا ملقبا اياه بأبى الشعب (وهذا ما جاء بعالية النصب) وأبدى له من مظاهر التشريف ميتا ما لم يكن ينبغى أبداؤه لحى الا اذا أردنا أن نستثنى قاتليه (٢) ٠ ثم لقب وكيل

---

(١) وصف دقيق لهذا المؤرخ الذى ولد عام ٥٦ بعد الميلاد ولا نعلم على التحقيق متى مات ٠ تقلب فى أرفع المناصب وكتب كتبا كثيرة أشهرها المعروف باسم التواريخ ، وصف فيه الحرب الأهلية بما زخرت به سواء من المطامع والمؤامرات أو من أمثلة الشجاعة والصداقة وصفا لا يدانى فى قوته ٠

(٢) وصف المؤرخ سويتون جنازة قيصر فى كتابه حياة القياصرة الأثنى عشر فقال : « فلما أعلن عن موعد الجنازة نصبت المحرقة فى ميدان مارس (اله الحرب) بجانب قبر يوليا (ابنة قيصر) وشيد تجاه منصة الخطابة مبنى مطلى بالذهب على طراز معبد فينوس الوالدة ، وضع به سرير من العاج غطى بالأرجوان والذهب ، ووضعت على رأس السرير شارات انتصارات قيصر مع الثياب التى كان يرتديها حين قتل ٠ ولما تبين أن اليوم كله لن يكفى مرور الناس الذين اصطفوا حاملين قرابينهم صدر قرار بأن يحمل كل من شاء قرابينه الى ميدان مارس متبعا أى طريق كان دون الانتظام فى الصف ٠ وفى خلال الألعاب الجنائزية تغنى الناس بالأشعار التى تثير الشفقة على قيصر والنقمة على قاتليه مثل هذا البيت ٠٠ « أوجب أن ينقذهم ليصبحوا قاتليه ؟ » وأبيات أخرى بنفس المعنى ٠٠ واكتفى القنصل أنطونيو (مارك) فى رثائه بان طلب الى احد المنادين أن يقرأ مرسوم مجلس الشيوخ الذى أسبغ على قيصر بالاجماع كل التشريفات الالهية والانسانية وكذلك العهد الذى كان جميع الشيوخ قد أقسموا فيه على الذود عن حياة قيصر ٠ ولم يضف هو الا كلمات قليلة ٠ ثم بعدئذ حمل النعش الى الميدان أمام منصة الخطابة عدد من كبار رجال الدولة =

الشعب (١) ، هذا أيضا لم ينس الأباطرة الرومان التلقب به الواحد

= الحاضرين والسابقين • وكان البعض يرى حرقه فى معبد جوبيتر على الكابيتول والبعض الآخر فى مجلس الشيوخ • واذا برجلين تمنطق كلاهما بسيف وحمل بيده رمحا يشعلان فيه النار فجاة بشموع موقدة • ولم يلبث جمهور المشيعين أن كدس حوله الحطب والمقاعد ومنصات القضـــاة ثم جميع الهدايا التى وسعه أن يجدها • بعدئذ خلع لاعبو المزامير والممثلون ثياب الاحتفال بالنصر التى كانوا قد ارتدوها لهذه المناسبة وزجوا بها فى النار كما زج قدماء الجنود الذين حاربوا تحت لوائه بالأسلحة التى كانوا قد تزينوا بها للمشاركة فى جنازته • لا بل أن عددا كبيرا من الأمهات رمين فى النار حليهن وحلى اطفالهن وعباءاتهم • الى جانب هذه المظاهر العامة التى تجلى فيها حزن الجمهور أدت الجاليات الأجنبية مراسم الحداد ، كل جالية على حدة حسب طقوسها وبخاصة اليهود الذين ذهبوا الى حد التجمع حول قبره ليالى متعددة (لأن قيصر هو الذى هزم بومبى الذى كان قد استولى على القدس) •

« وبعد ان انتهت الجنازة على الفور شيد له العامة عمودا من مرمر نوميديا يبلغ ارتفاعه نحو العشرين قدما ونقش عليه : الى أبى الوطن » •

(١) لقب وكيل الشعب يحتاج الى بعض الايضاح• ذلك أن رومولوس كان قد قسم الشعب الرومانى تقسيما اداريا وليس على أساس صلات الدم أو الرحم الى عشر قبائل يترأس كلا منها عشرة آباء ، أو شيوخ ويتكون من مجموعهم المجلس المعروف بهذا الاسم • أما الملك فلم يكن يتولى الحكم بالوراثة بل يستخلفه سابقه • فان مات السابق دون أن يستخلف أحدا تناوب الشيوخ الحكم الى أن يختار الشعب ملكا بشرط أن يوافق الشيوخ على اختياره • وكانت سلطة الملك أو بالأدق امارته المدنية (امبريوم) امارة مطلقة تشمل حق السلم والحرب وحق الحياة والموت على جميع سكان المدينة • ثم هى كانت لا تنفصل عن امارته الدينية (آوسبيسيوم) التى تبيح له حق استشارة الآلهة لمعرفة مشيئتهم فى شؤون السياسة والحرب والقضـــاء • وفى القرن الخامس قبل الميلاد سقط النظام الملكى وحلت محله « الجمهورية » • ولكن جميع الوظائف القيادية فى ادارة الدولة ظلت بيد الشيوخ وأسرهم فنجم عن ذلك شقاق هدد الصداع الأمة كلها لولا أن العامة ظفرت بحق انتخاب وكلائها الذين يتحدثون باسمها دفاعا عن مصالحها • ولم يكن هؤلاء الوكلاء يشـــاركون فى الحكم مشاركة ايجابية ولكن كان فى مستطاعهم حماية شرف العامة ومصالحها بممارسة حق الفيتو ازاء جميع القرارات الادارية وازاء القوانين التى يصدرها مجلس الشيوخ على السواء • هذا ولقد كانت الكلمة اللاتينية التى ترجمناها بالوكيل (تريبونوس) مشتقة من كلمة تريبوس بمعنى قبيلة لأن كل قبيلة كانت تختار وكلاءها ـ ويقال أيضا لبعضهم ماجستير ، ومعناه كل موظف فى جهاز الدولة وأن غلب بعد ذلك اطلاقه على القضاة خاصة •

بعد الآخر لما كان لهذه الوظيفة من الحرمة والقداسة ثم لأن القانون اقتضاها للدفاع عن الشعب وحمايته في ظل الدولة • بذا أرادوا اكتساب ثقة الشعب كأنما كان هم هذا الأخير هو سماع الاسم لا الشعور بنتائجه • وما يحسن عنهم صنعا طغاة اليوم الذين لا يرتكبون شرا مهما عظم دون أن يسبقوه بكلام منمق عن خير الجماعة وعن الأمن العام : لأنك تعلم حق العلم ، يا لونجا (١) ، ثبت الصيغ المحفوظة التي يريدون بها تغذية فصاحتهم وان جانبت الفصاحة غالبيتهم لنفورها من وقاحتهم • كان ملوك آشور ومن بعدهم ملوك ميديا لا يظهرون علانية الا بعد وقت متأخر بقدر المستطاع ليتركوا الجمهور في شك أهم بشر أم شيء يزيد وليسلموا لهذه الأحلام أناسا لا ينشط خيالهم الا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عيانا • هكذا عاشت في ظل الامبراطورية الآشورية شعوب متعددة ألفت خدمة هذا السيد الغامض وخدمته طائعة بمقدار جهلها أي سيد يسودها ، لا بل هي كانت لا تكاد تعلم ان كان لمثل هذا السيد وجود فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحدا لم يره أحد قط • كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية الا وقد جملوا على رؤوسهم حينا قطا وحينا فرعا وحينا نارا ، تقنعوا بها وتبرجوا كالمشعوذين وبذا أثاروا بغرابة المنظر المهابة والاعجاب في نفوس رعاياهم ، وكان أجدر بالناس لولا فرط حمقهم وعبوديتهم الا يروا في هذا كله ، على ما أعتقد ، الا مدعاة للهو والضحك (٢) • انه لأمر

(١) كان لونجا ـ وهو عضو برلمان بوردو الذي أخذ لابويسيه مكانه ، يعلم بطبيعة الحال نصوص القرارات والمراسيم الملكية التي لم يكن يخلو واحد منها من نفاق التعلل بالخير المشترك والمنفعة العامة •

(٢) كان ملوك مصر القديمة ـ وكذلك ملوك آشور ـ شيئا يزيد على البشر فعلا ، كما يقول لابويسيه • كان فرعون أقرب الى الشمس منه الى سائر الخلق : فهو ابن رع ، والى السماء منه الى الأرض : فهو حوريس المحلق فوق القبة الزرقاء ، وكانت له بعد الممات حياة يبعث اليها في شكل أوزيريس • ثم هو كان الوسيط =

يدعو الى الرثاء أن نسمع بأى الوسائل تذرع الطغاة حتى يؤسسوا طغيانهم والى أى الحيل التجأوا دون أن تتخلف الكثرة الجاهلة فى كل زمان عن ملاقاتهم فلا يرمون شبكة اليها الا ارتموا فيها وخلا تغريرهم بها من المشقة حتى أنهم انما ينجحون فى خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكثر السخرية ٠

ثم ماذا أقول عن مخرقة أخرى تلقفتها الشعوب القديمة كأنها

بين الآلهة والبشر ، يضمن لأولئك أداء الفرائض ولهؤلاء الرغد والعدالة والنصر ٠ لذا سمى حكمه حكما ثيوقراطيا أو ربوبيا (ثيو : باليونانية = اله أو رب) ٠ وكان حصول هذه المكانة فيه يتحقق بطقوس من نوع ما يسمى فى الانثروبولوجيا بطقوس الانتقال ، يدبرها الكهنة تدبيرا دقيقا ، أهمها عيد التزيية والتتويج التطهير بالماء والدهن بالزيت ، ومنه سمى الملك فى المسيحية بعد أن انتقلت اليها بعض هذه الطقوس عبر التوراة باسم « دهين الله » ٠ هذا الا أن القيمة الكبرى التى كان يعلقها قدماء المصريين على الالهة معت (الحقيقة والعدالة) كانت تحول دون جنوح الحكم الفرعونى الى ما يسمى بالحكم المطلق ، وان تكن هذه القيمة قد بقيت فى صورة العرف دون أن تتخذ شكل التشريع ٠ أضف أن هذه المكانة التى كان فرعون يعلو بها سائر البشر لم تكن تضفى عليه من حيث وجوده الفردى البيولوجى بل من حيث وظيفته العامة ٠ لذا يخطىء القارىء اذا ظن أن هذه التعلية قد أمحت اليوم آثارها بفضل التقدم ٠ فلفظ فرعون نفسه لفظ مركب من كلمتين تعنيان بالمصرية القديمة البيت الكبير ، مثلما تقول اليوم البيت الأبيض أو الاليزيه دلالة على رؤساء الدول المعاصرين ٠ أما الأغانى التى كانت تصحب طقوس الدهن أو التتويج ، كهذه الأغنية : « ليفرح البلد كله فقد جاء الزمن السعيد ٠ علا سيد جميع الأراضى ٠٠ والغمر فاض والنهار طال ٠ الليل انضبطت ساعاته والقمر يرجع فى مواقيته » ، فهل من ينكر أن التغنى بالحكام من شيم الشعوب ؟

نقد لا زيف فيه ؟ لقد دخل فى اعتقادها أن ابهام بيروس (١) ملك الايبيريين كان يصنع المعجزات ويشفى أمراض الطحال ، ثم جملوا القصة فأضافوا أن هذه الأصبع قد ظهرت سليمة وسط الرماد لم تصبها النار بأذى بعد أن احترق الجسد كله . هكذا يصنع الشعب نفسه الأكاذيب كيما يعود وليصدقها ، هذه الحكايات قد سجلها كثير من الناس ولكن على نمط لا يترك مجالا للشك فى أنهم لم يعدوا نقلها عما تردد فى جلبة المدن وعلى أفواه العامة . منها أن فاسباسيان (٢) رجع من آشور فمر بالاسكندرية متوجها الى روما فصنع فى طريقه المعجزات : قوم العرج ورد البصر الى العمى وأتى عجائب أخرى من هذا القبيل لا يغفل فى رأيى عن زيفها الا من أصابه

---

(١) بيروس (٣١٩ ــ ٢٧٢ ق.م.) هو أشهر ملوك ابيروس بجوار مقدونيا . بهر معاصريه ببراعته فى فنون الحرب والقتال وبمهارته الانتهازية فى مجال السياسة ولكنه لم يحقق نصرا دائما . ربما كان أهم آثاره أنه حول ابيروس الى دولة قوية مندمجة اندماجا تاما فى العالم الهلليني .

(٢) ولد فسباسيان عام ٩ . كان أبوه جابيا للضرائب وكانت أسرة أمه تنتمى الى ما كان يسمى فى روما بطبقة الفرسان وهى طبقة تقل درجة عن طبقة الشيوخ وان يكن أخوها قد دخل مجلسهم . تقلب فى أكبر مناصب الدولة المدنية والعسكرية ثم لما احتدم الصراع حول خلافة الامبراطور جالبا أعلنت فرقتان رومانيتان بالاسكندرية اختيارهما له امبراطورا فى الأول من يوليه عام ٦٩ ولم يلبث أن حذت حذوها الجيوش الرومانية فى فلسطين وسوريا . كان ذا طاقة كبيرة على العمل متواضعا فى حياته محبا لأسرته حبا انحرف الى المحاباة حتى انه استخلف ولديه كالمتبع فى ممالك الشرق وبخلاف المتبع فى روما . ربما كان أعظم منجزاته انهاء الحرب الأهلية ونشر السلام . هذا ولقد كان الاعتقاد بقدرة الملوك على اتيان الشفاء لا يزال ساريا فى عصر لابويسيه فى فرنسا وانجلترا على السواء . كان المرض بالتحديد هو البرص وكان الشفاء يتم بلمس المواضع المصابة ورسم علامة الصليب تتلوه صدقة نقدية . وكان المفروض أن هذه الكرامة تدخل فيما يحصل للملك بفضل طقوس الدهن . ولم يبطل هذا الاعتقاد لأن الوقائع كذبته فكون العلة تدخل فى سجل الوهم لا يمنع قدرتها على احداث نتائج تدخل فى سجل الواقع ولكن بفضل الثورات السياسية التى بدأت فى انجلترا وفرنسا .

عمى يغلب عمى الذين ينسب الى فاسباسيان شفاؤهم • ان الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبه على رؤوسهم من الاسـاءة لانسان مثلهـم ، لهذا إحتموا بالدين واستتروا وراءه ، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سندا لحياتهم الباطلة • اليك بسالمونيوس (١) الذى تروى العرافة فى ملحمة فرجيل أنه يرقد الآن فى قاع الجحيم عقابا له على هزئه بالناس الى حد جعله يريد تقمص جوبيتر أمامهم •

لحقه شديد العذاب اذ ابتغى •
محاكاة جوبيتر رعده وصواعقه •
فشد أربعة جياد صواهل الى عربته الفانية •
ثم علاها ممسكا بشعلة من النار الساطعة •
وجرى فى سوق اليدا ناثرا الرعب بين سكانها •
المجنون ادعى ملك السماء وادعى بالصاج •
محاكاة الرعد الذى يأبى دويه المحاكاة !
ولكن جوبيتر رماه بالصاعقة الحقة •
فقلب عربته فى زوبعة من النار •
غطتها هى وجيادها وربها وصاعقته •
كان النصر قصيرا ولكن العذاب مقيم •

فاذا كان هذه المأفون لا يزال يلقى هذا العقاب فى الدار الأخرى بينما هو لا يعدو أن ركبته نزوة من الحمق فيقينى أن من تذرعـوا بالدين تحقيقا لشرورهم ينتظرهم كيل أعظم •

---

(١) ورد ذكر سالمونيوس فى النشيد السادس من ملحمة فرجيل عن وقائع اينيه على أنه ملك اليدا فى شمال شبه جزيرة اليونان قريبا من البحر الأيوبى • يتردد فى هذه القصة صدى الطقوس السحرية المبنية على تقنية المحاكاة : كقرع الطبول استثارة للرعد •

أما طغاتنا نحن فقد نثروا فى فرنسنا رموزا لا أدرى كنهها كالضفادع والزنابق والقارورة المقدسة والشعلة الذهبية (١) ، وكلها أشياء لا أريد أيا كانت ماهياتها أن أثير التشكك فيها ما دمنا وما دام أجدادنا لم نر مدعاة للارتداد عن تصديقها اذ وهبنا على الدوام ملوكا طيبين فى السلم شجعان فى الحرب حتى ليخال المرء أنهم وان ولدوا ملوكا لم تسوهم الطبيعة على غرار الآخرين وانما اختارهم الله القادر على كل شىء قبل أن يولدوا لحكم هذه المملكة والحفاظ

---

(١) كانت هذه الرموز تزين خواتم الملوك وأختامهم وأزياءهم وسلاحهم ومتاعهم وكان كل منها بمثابة نواة تراكمت حولها الحكايات والأساطير على مر العصور . فالزنابق مثلا أصلها أن الملك كلوفيس قبل أن يهتدى المسيحية كانت رموزه الأهلة (وهنا تنطوى القصة على خلط بين الوثنية والاسلام) ولكن ناسكا أعطى زوجته المسيحية كلوتيلد درعا يحمل الزنابق الثلاث مؤكدا لها أن زوجها منتصر به ، فلما انتصر تنصر . كذلك الشعلة الذهبية (وهى راية فى صورة الشعلة أكثر استخدامها استخدام زخرفى فى مواكب الملوك) قصتها أن امبراطور القسطنطينية رأى فى المنام فارسا يقف بجانب مضجعه وبيده رمح تخرج منه اللهب وعندئذ بدا له ملاك ينبئه أن هذا الفارس لا أحد غيره هو الذى سوف يخلص أراضيه من قبضة العرب . وكان هذا الفارس هو شارلمان ملك الفرنجة . ولكن أحب هذه القصص الى النفوس وأثبتها فى الاعتقاد لاتصالها بالمشاعر الدينية كانت تلك المتعلقة بالقارورة او القنينة المقدسة وهى زجاجة صغيرة تحوى الزيت الذى كانت تقضى الطقوس بدهن الملك به كما سبقت الاشارة اليه . قيل ان القس المكلف باحضار الزيوت الطاهرة قد عاقته حشود الجماهير عن الوصول فى الميعاد يوم تعميد الملك كلوفيس فهبطت يمامة من السماء تحمل الى القديس ريمى (الأسقف المعمد) « البولة » صغيرة حوت الزيت المطلوب . هذا الدهـــان الذى ليس من هذه الأرض محفوظا فى قارورته الأصلية بكاتدرائية رانس ولهذا كان تتويج ملوك فرنسا يتم دائما فى هذه المدينة .

عليهـا (١) • وحتى لو لم يكن الأمر كذلك لما أردت الخوض فى الحديث عن صحة قصصنا ولا نقدها نقدا دقيقا حتى لا أفسد جمالا قد يتبارى فيه شعراؤنا أمثال رونسار وباييف وبلاى (٢) الذين لا أقول أنهم حسنوا شعرنا بل خلقوه خلقا جديدا وبذا تقدموا بلغتنا تقدما يجعلنى أجرؤ على الأمل فى ألا تعود بعـد ذلك لليونانيـة واللاتينية مزية عليها سوى حق الأقدم • فلا شك فى أنى سوف أسيء الى نظمنا (ولا أنكر انى أستخدم هذه الكلمة طواعية لأنه اذا كان من الحق أن البعض قد جعل من النظم صنعة آلية فمن الحق أيضا أن هناك عددا كافيا من القادرين على استرجاع نبله ومقامه الأول) ، أقول انى أسيء الآن الى نظمنا لو أنى جردته من حكايات الملك كلوفيس الجميلة بعد أن رأيت بأى رشاقة وسهولة يسبح فيها وحى رونســار فى فرنســوياته • انى أحس أثر الرجل فى المستقبل ، انى أعرف توقد فكره وأعلم لطفه : لسوف يوفى الشعلة الذهبية حقها مثلما صنع الرومان بدروعهم :

---

(١) أغلب الظن أن لابويسيه لا يشير هنا الى رموز الملك بل الى أمارات العرق مثل علامة الرمح التى قيل أنها كانت تميز العائلات النبيلة فى طيبة اليونانية • نسجت أمثال هذه الروايات عن الملوك المسيحيين فى القرون الوسطى فقيل أنهم يتميزون بعلامة فى هيئة الصليب على الكتف دليلا على اختيار الله لهم •

(٢) ينتمى هؤلاء الشعراء الثلاثة الى جيل قريب العهد باكتشاف ذخائر الأدب اليونانى فكانت أول رغبات المثقفين فى وقت بدأت تتأجج فيه المشاعر الوطنية مع تحقق وحدة المملكة على يد أسرة فالوا هى أن يسبغوا على اللغـة الفرنسية وشعرها الجمال الذى أحبوه فى اليونانية • أعلن بلاى مذهبهم فى كتابه دفاع وبيان عن اللغة الفرنسية الذى نشر عام ١٥٤٩ ، وتألفت منهم جماعة الـ بلياد كما سماها رونسار الذى نشر هو أيضا موجزا فى فن الشعر • ولا عرو أن يعرب لابويسيه عن اعجابه بهم فقد أثروا اللغة الفرنسية بوسائل لا تحصى : خلق الجديد ، استرجاع القديم ، الاشتقاق من اللاتينية واليونانية والايطالية ، حرية الصرف والنحو ، ابتكار صيغ جديدة لا وجود لها فى اللغة الفرنسية وان وجدت فى اللغات الأخرى ، الخ •

دروع السماء الملقاة على أرضنا (١)

كما يقول فرجيل ، لسوف يرفق بقارورتنـا رفق الأثينيين بسلة اريكتون (٢) ولسوف يجعـل الناس تشـيد بشعاراتنا مثلما شاد الأثينيون بغصن الزيتون الذى لا زالـوا يحفظونه فى بـرج منيرفا • لهذا كنت أتجاوز الحد يقينا لو أنى أردت تكذيب كتبنا وجريت فى مراتع شعرائنا • ولكننى لكى أعود الى موضوعى الذى لا أدرى كيف أفلت منى خيطه ألحظ أن الطغاة كانوا يسعون دائما كيما يستتب سلطانهم الى تعويد الناس على أن يدينوا لهم لا بالطاعة والعبودية فحسب بل بالاخلاص كذلك (٣) •

ـ فكل ما ذكرته حتى الآن عن الوسائل التى يصطنعها الطغاة ليعلموا الناس كيف يخدمونهم طواعيـة انمـــا ينطبق على الكثرة الساذجة من الشعب •

انى أقترب من نقطة هى التى يكمن فيها على ما أعتقد زنبلك السيادة وسرها ويكمن أساس الطغيان وعماده • ان من يظن أن

---

(١) دروع قيل أنها سقطت من السماء على أرض روما فى عهد الملك نوما وأن الغلبة سوف تظل دائما لهذه المدينة طالما احتفظ الرومان بها •

(٢) اريكتون بطل اسطورى قيل انه انحدر من هيفاستوس ملك الحدادين (فولكان عند الرومان) وأن الآلهة أثينا عنيت به عند ولادته فوضعته فى سلة عهدت بها الى ثلاث أخوات شريطة ألا يفتحنه ولكنهن فعلن فأصابهن الجنون اما لغضب الآلهة واما لأن الطفل كان انسانا نصفا ونصفا ثعبانا وألقين بأنفسهن من قمة جبل الأكروبول • صار الطفل ملك أثينا فادخل عبادة الآلهة ، واليه ينسب أيضا أنه اخترع العربات ليخفى نصفه الثعبانى •

(٣) يسدى ابن الربيع ـ لا فض فوه ـ بهاتين النصيحتين الى المالك فى سياسة جمهور الرعية : « يجتهد فى استمالة قلوبهم ، وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة » ، « وليجعل محبتهم له اعتقادا دينيا لا طمعا فى أغراض الدنيا » • (سلوك المالك فى تدبير الممالك ، تحقيق ناجى التكريتى ، بغداد ، ص ١٨٠) •

الرماحة والحرس وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطيء في رأيي خطأ كبيرا • ففي يقيني أنهم انمسا يعمدون اليها مظهرا واثارة للفزع لا ارتكانا اليها • فالقواسة تصد من لا حول لهم ولا قوة على اقتحام القصر ولكنها لا تصد المسلحين القادرين على بعض العزم • ثم أن من السهل أن تتحقق أن أباطرة الرومان الذين حماهم قواسوهم يقلون عددا عمن قتلهم حراسهم • فلا جموع الخيالة ولا فرق المشاة ولا قوة الأسلحة تحمي الطغاة •

الأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى ولكنه الحق عينه : هم دوما أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه ، أربعة أو خمسة يشدون له البلد كله الى مقود العبودية ، في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ اليهم أذن الطاغيـــة ، يتقربون منــه أو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه وخلان ملذاته وقواد شهواته ومقاسميه فيما نهب • هؤلاء الستة يدربون رئيســـهم على القســـوة نحو المجتمع لا بشروره وحدها بل بشروره وشرورهم • هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ستمائة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية ، ثم هؤلاء الستمائة يذيلهم ستة آلاف تابع ، يوكلون اليهم مناصـــب الدولة ويهبونهم اما حكم الأقاليم واما التصرف في الأمـــوال ليشرفوا على بخلهم وقساوتهم وليطيحوا بهم متى شاءوا تاركين اياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء الا في ظلهم ولا بعدا عن طائلة القوانين وعقوباتها الا عن طريقهم • ما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك ! ان من أراد التسلي بأن يتقصى هذه الشبكة وسعه أن يرى لا ستة آلاف ولا مائة ألف بل أن يرى الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل ، مثل جوبيتر اذ يجعله هوميروس يتفاخر بأنه لو شد سلسلته لجذب اليه الآلهة جميعا • من هنا جاء تضخم مجلس الشيوخ في عهد يوليوس (١) وجاء خلق المناصب الجديدة وفتح باب التعيينات

---

(١) المراد يوليوس قيصر •

والترقيات على مصراعيه ، كل هذا يقينا لا من أجل اصلاح العدالة بل أولا وأخيرا من أجل أن تزيد سواعد الطاغية ٠خلاصة القول اذن ، هي أن الطغاة تجني من ورائهم حظوات وتجني مغانم ومكاسب فاذا من وبحوا من الطغيان ، أو هكذا هيىء اليهم ، يعدلون فى النهاية من يؤثرون الجرية ٠ فكما يقول الأطباء أن جسدنا لا يفسد جزء منه الا اتجذبت أمزجته الى هذا الجزء الفاسد دون غيره كذلك ما أن يعلن ملك عن استبداده بالحكم الا التف حوله كل اسقاط المملكة وحثالتها ، وما أعني بذلك حشد صغار اللصوص والموصومين الذين لا يملكون لبلد نفعا ولا ضرا بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق وبخل شديد (١) ، يلتفون حوله ويعضدونه لينالوا نصيبهم من الغنيمة وليصيروا هم أنفسهم طغاة مصغرين فى ظل الطاغية الكبير ٠ هكذا الشأن بين كبار اللصوص ومشاهير القراصنة : فريق يستكشف البلد وفريق يلاحق المسافرين ، فريق يقف على مرقبة وفريق يختبىء ، فريق يقتل وفريق يسلب ٠ ولكنهم وان تعددت المراتب بينهم وكانوا بعضا توابع وبعضا رؤساء الا أنه ما من أحد منهم الا خرج بكسب ما ، ان لم يكن بالغنيمة كلها فيما انتشل ٠ ألا يحكى أن القراصنة الصقليين (٢) لم تبلغ فقط كثرة عددهم حدا لم يجعل بدا من ارسال بومبى أعظم قواد العصر لمهاجمتهم بل هم فوق ذلك قد جروا الى التحالف معهم عددا كبيرا من المدن الجميلة والثغور العظيمة التى كانوا يلوذون بها بعد غزواتهم لقاء بعض الربح مكافأة على اخفاء أسلابهم ؟

(١) المراد بالبخل هو بوجه خاص الاكتناز بالمعنى الذى سجله ماركس اذ قال فى وصف سيكولوجية المكتنز : « من أجل متعة خيالية لا حدود لها يترك كل متعة فى الواقع » ٠

(٢) القراصنة المشار اليهم كانوا يفدون بالأصح لا من صقلية بل من سيسيليا على ساحل آسيا الصغرى الجنوبى ٠

هكذا يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض ، يحرسه من كان أولى بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئا ، وهكذا يصدق المثل : لا يفل الخشب الا مسمار من ذات الخشب · ها هو ذا يحيط به قواسته وحراسه وحاملو حرباته ، لا لأنهم يقاسون الأذى منه أحيانا بل لأن هؤلاء الضالين الذين تخلى الله عنهم وتخلت الناس يستمرئون احتمال الأذى حتى يردوه لا الى من أنزله بهم بل الى من قاسوه مثلهم دون أن يملكوا الا الصبر · غير أنى اذ أنظر الى هؤلاء الناس الذين يجرون وراء كرات الطاغية لتحقيق مآربهم من وراء طغيانه ومن وراء عبودية الشعب على حد سواء يتملكنى أحيانا كثيرة العجب لرداءتهم وأرثى أحيانا لحماقتهم : فهل يعنى القرب من الطاغية فى الحقيقة شيئا آخر سوى البعد عن الحرية واحتضانها بالذراعين ؟ اذا جاز هذا التعبير ، ليتركوا ولو حينا مطامعهم ، وليتجردوا ولو قليلا من بخلهم ، ولينظروا بعدئذ الى أنفسهم وليقبلوا على معرفتها : لسوف يرون عندئذ أن أهل القرى والفلاحين الذين يحلو لهم دوسهم بالأقدام طالما استطاعوا وتحلو لهم معاملتهم معاملة أشر من معاملة السخرة والعبيد ، سوف يرون أن هؤلاء المستضعفين هم مع ذلك أسعد حظا وأوفر حرية بالقياس اليهم · فالأجير والحرفى وان استعبدا يفرغان مما ضرب عليهما بأداء ما يطلب اليهما · ولكن الطاغية يرى الآخرين يتزلفون اليه ويستجدون حظوته ، فعليهم لا العمل بما يقول وحسب بل عليهم أيضا التفكير فيما يريد وغالبا ما يحق عليهم أن يحدسوا ما يدور بخلده حتى يرضوه · فطاعتهم له ليست كل شيء بل تجب أيضا ممالأته والانقطاع له ويجب أن يعذبوا أنفسهم وأن ينفقوا فى العمل تحقيقا لمراميه · ثم لما كانت نفوسهم لا تلذ لهم الا اذا لذت له ، فليتركوا أذواقهم لذوقه وليتكلفوا ما ليس منهم وليتجردوا من سليقتهم ، عليهم الانتباه لكلماته وصوته ولما يبدو منه من العلامات ولنظراته ، لينزلوا عن أعينهم وعن أرجلهم وأيديهم وليكن وجودهم كله رصدا من أجل تجسس رغباته وتبين أفكاره · أهذه حياة سعيدة ؟ أتسمى هذه حياة ؟ هل فى

الدنيا شيء أقسى احتمالا ، لا أقول على رجل ذى قلب ولا أقول على انسان حسن المولد وانما على كائن حظى بقسط من الفهم العام أو له وجه انسان لا أكثر ؟ أى وضع أشد تعسا من حياة على هـذا النحو لا يملك فيها المرء شيئا لنفسه ، مستمدا من غيره راحته وحريته وجسده وحياته ؟ •

لكنهم يريدون العبودية ليجنوا من ورائها الأملاك : كما لو كان في مستطاعهم أن يغنموا شيئا بينا هم لا يستطيعون أن يقولوا أنهم يملكون أنفسهم • يريدون لو حازوا الأشياء كأن للحيازة متسعا فى ظل الطاغية ويتناسون أنهم هم الذين أعطوه القوة على أن يسلب الجميع كل شيء دون أن يترك لأحد شيئا يمكن القول أنه له • أنهم يرون أنه ما من شيء يعرض الناس لقسوته مثل الخير وأنه لا جريمة نحوه تستحق الموت فى نظره كحيازة ما يستقل به المرء عنه • انهم يرون أنه لا يحب الا الثروات ولا يكسر الا الأثرياء — وهم مع هذا يسعون اليه سعيهم الى الجزار كى يمثلوا بين يديه ملأى مكتنزين ولكى يستثيروا جشعه • هؤلاء المقربون قد كان أولى بهم ألا يتذكروا من غنموا من الطغاة والحيـاة جميعا • كان أولى بهم أن يتعظوا لا بالكثرة التى أثرت بل بالقلة التى استطاعت الاحتفاظ بمـا كسبت • لنستعرض كل القصص القديمة ولنستعد تلك التى تعيها ذاكرتنا : لسوف نرى ملء عيوننا الى أى مدى كثر الذين اجتذبوا آذان الطاغية بطرق بخسة محركين سوء جبلتهم أو مستغلين غفلتهم ثم اذا هم بعد ذلك يسحقون فى النهاية سحقا بأيدى الأمراء أنفسهم ، لا يعدل مقدار السهولة التى علوهم بهـا الا مقدار ما خبروه من انقلابهم الى ضربهم • هذا العدد الغفير من الناس الذين عاشوا فى حمى هذه الكثرة من الملوك الأرذال لم يسلم منهم يقينا الا القليل ، ان لم نقل لم يسلم منهم أحد ، من قسوة الطاغية التى بدأوا بتأليبها ضد الآخرين : ففى معظم الأحيان يثرى الغير بما يسلبون بعد أن أثروا هم بما سلبوا فى ظل ما تمتعوا به من الحظوة •

أما القوم الأفاضل ، لو وجد بينهم رجل يحبه الطاغية ، فهم مهما نالوا من حظوته ومهما أشرقت فيهم الفضيلة والنزاهة اللتان لا يقربهما أحد ولو كان أردأ الناس صنفا الا أثارتا فيه بعضا من الاحترام ، هؤلاء القوم لا دوام لهم في كنف الطاغية : فهم يؤولون الى ما آل اليه الجميع ولا يجدون مفرا من أن يعرفوا بخبرة مرة ماهو الطغيان • خذ مثـلا هؤلاء الثلاثة الأفاضـــل : سـينيكا وبوروس وترازياس (١) • الأولان منهما كان من نكد طالعهما أن عرفا الطاغية فترك لهما ادارة أشغاله وآكن لهما التقدير والاعزاز ، خاصة وأن أولهما كان قد تعهده في طفولته وكان له في ذلك ضمان لصداقته ، ولكن ثلاثتهم يشهد موتهم الأليم شهادة كافيـة بأن حظوة السيد الردىء ليس أقل من ضمانها • وفي الحق أى ضمان يرتجى من رجل قسا قلبه حتى شمل كرهه مملكته المذعنة لأمره ونضبت فيه معرفة الحب فلم يعد يعرف الا كيف يعدم نفسه ويدمر امبراطوريته ؟

فلو قلنا ان هؤلاء الثلاثة انما ترددوا في هذه العواقب لحسن خلقهم كفى أن نسدد النظر حول نيرون نفســه لنرى أن الذين لقوا حظوته واستقروا فيها بأرذل الوسائل لم يدم عهدهم زمنا أطول • من الذى ســـمع عن حب استسلم له صاحب بلا حـد ؟ عن اعزاز بلا قيد ؟ من الذى قرأ في أى زمن من الأزمنة عن رجل ولع بامرأة

---

(١) سينيكا هو الفيلسـوف الرواقي المعروف ، بوروس كان معلما لنيرون وتراسبياس كان عضوا بمجلس الشيوخ • ثلاثتهم اشتغلوا مستشارين لنيرون وثلاثتهم اتهمهم نيرون بخداعه والكيد له ، فحكم على بوروس بالسجن أما الآخران فانتحرا •

ولها عنيدا ملازما كولع نيرون هذا قبل يوبيا (١) ؟ ثم بعدئذ دس لها السم ! ألم تقتل أمه أجريبينا (٢) زوجها كلوديوس حتى تفسح له الهيمنة على الامبراطورية ؟ ألم تبذل ما وسعت ، ألم تقبل طواعية على كل اثم اعلاء له ؟ ومع ذلك ما لبث ابنها هـــذا ، رضيعها ، امبراطورها الذى صنعته بيدها ، ما لبث بعد أن جحدها مرارا أن انتزع حياتها فى النهاية ، وانه لعقاب ما كان أحد ينكر أنه جزاؤها المستحق لو أن يدا أخرى أنزلته بها غير يد من مكنته • أى رجل كان أسهل انقيادا وأكثر سذاجة أو بالأصح أكثر بلها من الامبراطور كلوديوس ؟ أى رجل ركبته امرأة مثلما ركبته مساليتا (٣) ؟ ومع هذا أسلمها أخيرا ليد الجلاد ! ان الغباوة تلازم الطغاة دائما حتى حين يريدون اسداء الحسن اذا أرادوا اسداءه ، ولكنهم حين يريدون البطش بالمقربين اليهم يستيقظ فيهم لا أدرى كيف القليـــل من فصاحتهم • ألا نعلم هذه النادرة التى فاه بها هذا الذى رأى صدر المرأة التى شغف بها أيما شغف حتى بدا كأنه لا يستطيع الحيـــاة بدونها ، رآه عاريا فداعبها بهذه المزحة : هذا العنق الجميل قد يقطف قريبا لو أردت ؟ لهذا كان معظم الطغاة القدامى يلاقون حتفهم على أيدى المقربين اليهم الذين اذ عرفوا طبيعة الطغيان لم يستطيعوا الاطمئنان الى ارادة الطاغية بقدر ما حـذروا قوته • هكـذا قتل دومبسيان اتين وقتلت كومودس احدى محظياته كما قتل أنطونان على يد مارسان ، وهكذا فى سائرهم (٤) •

(١) يوبيا محظية نيرون • تزوجها ثم قتلها ويقال بركلة قدم ــ عام ٦٥ •

(٢) تزوجت أجريبينا أم نيرون ثلاث مرات وكان آخر أزواجها عمها الامبراطور كلوديوس • جعلته يتبنى ولدها نيرون ثم سمته حتى يعتلى نيرون العرش • ولكنه ضاق بها فامر بقتلها •

(٣) كانت مسالينا (١٥ ــ ٤٨) الزوجة الرابعة للامبراطور كلوديوس وأم بريتانيكوس واكتافيا ، ضربت بفجورها الأمثال •

(٤) الأباطرة دوميسيان وكومودوس وانطونان (الذى عرف باسم كاراكالا) حكموا على الترتيب فى السنوات الآتية : ٨٠ الى ٩٦ ، ١٨٠ الى ١٩٢ ، ٢١١ الى ٢١٧ •

ان من المستيقن أن الطاغية لا يلقى الحب أبدا ولا هو يعرف الحب • فالصداقة اسم قدسي وجوهر طاهر ، انها لا تعرف لها محلا الا بين الأفاضل ولا تؤخذ الا بالتقدير المتبادل وليس باغداق النعم • فالصديق انما يأمن الى الصديق لما يعرفه من استقامته ، ضمانته هي استقامته وصدق طويته وثباته • فلا مكان للصداقة حيث القسوة ، حيث الخيـــانة ، حيث الجور • فالأشرار اذا اجتمعوا تآمروا ولم يتزاملوا ، لا حب يسود بينهم وانما الخشية ، فما هم بأصدقاء بل هم متواطئون •

• وحتى لو صرفنا النظر عن هذه العوائق لتبينا أن من الصعب أن يضم فؤاد الطاغية حبا يوثق به ، لأنه اذ علا الجميع وعدم كل رفيق قد خرج بهذا عينه عن حدود الصداقة التي مقعدها الحق هو المساواة والتي تأبى دوما التعثر في خطواتها المتساوية أبدا • لهذا نرى (فيما يقال) شيئا من القسط بين اللصوص عند اقتسام الغنيمة لأنهم متزاملون متكافلون ، واذا كانوا لا يتبادلون الحب فهم على الأقل يتبادلون الحذر ولا يرغبون في اضعاف قوتهم بالتفرق بدل الوحدة • أما الطاغية فما يستطيع المقربون اليه الاطمئنان اليه أبدا ما دام قد تعلم منهم أنفسهم أنه قادر على كل شيء وأنه لا حق ولا واجب يجبرانه وما دام تعريفه صار يقوم في اعتبار ارادته العقل وفي انتفاء كل نظير وسيادة الجميع • أليس أمرا يدعو الى الرثاء أن كل هذه الأمثلة الواضحة وهذا الخطر الدائم لا تدعو أحدا الى الاتعاظ بها وأن يتقرب الى الطاغية طواعية هذا العدد الغفير من الناس دون أن يجد أحد الحصافة والجرأة اللتين تمكناه من أن يقول ما قاله الثعلب ، على ما ورد في الحكاية ، للأسد الذي اصطنع المرض : « كنت أزورك طواعية في عرينك لولا أني أرى وحوشا كثيرة تتجه آثارها قدما اليك وما أرى أثرا يعود » •

هؤلاء التعساء يرون بريق كنوز الطاغية وينظرون مشـــاهد بذخه وقد بهرتهم أشعتها فاذا هذا الضوء يغريهم فيقتربون منه

دون أن يروا أنهم انما يلقون بأنفسهم فى اللهب الذى لن يتخلف عن اهلاكهم • هكذا صنع الساتير (١) الطفيلى الذى تحكى الحكاية أنه شهد النار التى اكتشفها بروميثيوس وهى تضيء فرأى لها جمالا فائقا فذهب يقبلها فاحترق • مثله مثل الفراشة التى تلقى بنفسها فى النار أملا فى الحظوة بلذة من نورها فاذا هى تعرف قوتهـــا الأخرى : قوتها الحارقة ، كما يقول الشاعر التسكانى (٢) • ولكن لنفرض أن هؤلاء الأغرار يفلتون من قبضة من يخدمون ، أيعلمون أى ملك آت من بعد ؟ اذا كان طيبا وجبت الاجابة عما صنعوه ولم صنعوه ، واذا كان سيئا شبيها بسيدهم فلسوف يصحبه أيضـا أتباعه الذين لا يقنعون بالاستحواذ على مكان الآخـرين بل تلزمهـم أيضا فى معظم الأحايين أملاكهم وحياتهم • أيمكن اذن ، وهذا مدى التهلكة ومدى قلة الأمن أن يـكون هنـاك امرؤ يرغب فى ملء هذا المكان البائس هذا ، أيها الرب الحق ! أن يقضى المرء النهار بعد الليل وهو يفكر كيف يرضى واحدا بينما هو يخشاه مع ذلك أكثر مما يخشى أى انسان آخر على وجه البسيطة ، أن يكون عينا دائمة البصر وأذنا تسترق السمع حتى يحدس مأتى الضربة القادمة وموقع المصائد وحتى يقرأ فى وجوه أقرانه أيهم يغدر به ، يبتسم لكل منهم وهو يخشاهم جميعا ، لا عدوا سافرا يرى ولا صديقا يطمئن اليه ، الوجه باسم والقلب دام ، لا قبل له بالسرور ولا جرأة على الحزن ! •

ولكن الأغرب هو أن نرى ما يعود عليهم من هذا العذاب الشديد والكسب الذى يستطيعون توقعـه من مكابدتهم وحياتهم البائسة • فالذى يقع هو أن الشعب لا يتهم الطاغية أبدا بمـا يقاسيه وانما ينسبه طواعية الى من سيطروا عليه : هؤلاء تعرف أسماءهم الشعوب

---

(١) كائن فى صورة انسان له قرون الماعز واقدامها • يطلق مجازا على الفاجر •

(٢) المراد بترارك •

والأمم ويعرفها العالم قاطبة حتى الفلاحين والأجراء ، يعرفونها ويصبون عليهم ألف قذيعة وألف شتيمة وألف سبة ، كل أدعيتهم وأمانيهم تتجه ضـــدهم ، كل ما يلحق بهم من البلايا والأوبئة والمجاعات يقع فيه اللوم عليهم ، فان تظاهروا أحيانا بتبجيلهم سبوهم معا فى قلوبهم ونفروا منهم كما لا ينفرون من الوحوش الكاسرة • هذا هو الشرف وهذا هو المجد اللذان ينالون جزاء على ما صنعوه تجاه الناس الذين لو ملك كل منهم جزءا من أجسادهم لما اجتزأ ولا رأى فيه نصف عزاء عن شقائه ، فان أدركهم الموت لم يتوان من يجىء بعدهم عن أن يظهر بينهم ألف قلم يسود بمداده أسماء آكلى الشعوب (١) هؤلاء ويمزق سمعتهم فى ألف كتاب ، وحتى عظامهم ذاتها ، اذا جاز هذا التعبير ، يمرغها فى الوحل عقابا لهم بعد مماتهم على فساد حياتهم •

لنتعلم اذن • لنتعلم مرة أن تسلك سلوكا حسنا • لنرفع أعيننا الى السماء بدعوة من كرامتنا أو من محبة الفضيلة ذاتها أو اذا أردنا الكلام عن علم فيقينا بدعــوة من محبــة الله القادر على كل شىء وتبجيله ، ولهو الشــاهد الذى لا يغفل عن أفعــالنا والقاضى العادل فى أخطائنا • أما فيما تعلق بى فانى لأرى ، ولست بالمخدوع ما دام لا شىء أبعد عن الله وهو الغفور الرحيم من الطغيان ، أنه يدخر فى الدار الأخرى للطغاة وشركائهم عقابا من نوع خاص •

---

(١) آكلو الشعوب وصف ورد فى الالياذة عدة مرات ، خلعه هوميروس على بعض الملوك •

كلمة عن المراجع

الكتب المتعلقة بالموضوعات التى أثيرت فى تقديم مقال لابويسيه لا حصر لها ، قد تنطوى الاطالة فى ذكرها على استخفاف بالعالم دون طائل للجاهل • لهذا اكتفيت بأن أذكر أولا أحدث نشرتين للنص نفسه ، لا أتردد فى تفضيل الوارد ذكرها أولا ، وذلك لاحتوائها على مقدمات له كتبت فى عصور شتى ، أهمهـا مقدمة لامنيه ، وعلى دراسات جادة بأقلام مختلفة ، فضلا عن « ترجمة » الى الفرنسية الحديثة وضعت فى القرن التاسع عشر • ثم أضفت اليهما كتابين لا يستغنى عنهما كل من أراد دراسة الفلسفة السياسية فى العصر الوسيط وما بعده • أولهما كتاب أوتوجيركه الذى أوضح للمرة الأولى أثر ظهور المتجسديات أو الاتحادات المهنية فى نظرية الدولة ، وهو كتاب صدر بالألمانية فى أواخر القرن الماضى ولم يبزه كتاب آخر حتى الآن ، وظهرت لأهم أبوابه ترجمة انجليزية عام ١٩٠٠ ، أذكر آخر طبعاتها ، عام ١٩٨٧ • أما الكتاب الثانى فهو وان شابه بعض الاسهاب ، أحسن ما يعين القارىء على تفهم التشابك المحتـوم بين الصيغ القانونيـة والاسـتعارات الغيبية • يبقى أن الأهمية الخالصة التى أراها لظهور الانتليجنسيا فى القرنين الثالث والرابع عشر قد دعتنى الى ذكر الكتاب الذى أراه أحسن ما كتب فى هذا الباب منذ ظهور عام ١٩٥٧ وان كان التركيز فيه على عوامل نشوئهم ودورهم الاجتماعى يغلب على تقصى تكونهم الفكرى الذى يدينون فيه بلا شك الى أمثال ابن سينا وابن رشد والخوارزمى •

1. Etienne de la Boétie, *Le Discours de la Servitude Volontaire* ; tezte établi par P. Léonard; Payot, Paris, 1985.

2. Etienne de la Botie, Le Discours de la Servitude *Voloutaire;* introduction par Simone Goyard-Fabre;

3. Otto Sierke, *Political Theories of the Middle Age;* traslated by F. W. Maitland; Cambridge U.P., 1987.

4. E. H. Kantorowicz, *The King's Two Bodies*; Princeton U.P., 1957-1981.

5. Jacques Le Goff, Les intellectuels au Moyen Age; Seuil, Paris, 1957-1985.

فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٥٥٥٩

ISBN — 977 — 01 — 3099 — 0

يتناول هذا الكتاب النظريات السياسية في العصر الوسيط والتي تقوم على فكرة الكل. فهي ترى في العالم كلاً وترى في كل موجود سواء وجد بالترابط (الجماعة) او بالانفراد جزءاً وكلاً في آن معا. جزءاً تحكمه العلة الغائية للعالم وكلاً له علته الغائية الخاصة. ومنه يخرج التصور الوسيط للمجتمع. فالجماعة الإنسانية جزء من الكل يستمد وجوده من وجود الله. وكل مجتمع ارضي عضو في مدينة الله التي تضم السماء والارض جميعا. اما المبدأ الذي يقوم في كيان العالم او دستوره فهو الوحدة، لأن الله واحد وإرادته واحدة. فكيف يقع انقسام الجماعة الإنسانية إلى نظامين: الروحي والزمني؟ الجميع يتفق على أن هناك وحدة عليا يقع فيها الوفاق. ولكن كيف يتم؟ من البيّن أن الأمر يتعلق هنا بما يسمى في الفلسفة السياسية بنظرية الأعلوية، وأعني بها السلطة التي تعلو كل سلطة أخرى.

فالسيادة لم تكن قط حقا صرفاً بل كانت في المحل الاول واجباً وتكليفاً. فالحكام مجعولون للشعوب وليس الشعوب للحكام.

١٦٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب